عين على الطريق

روايـــــة

الطبعـة الأولـــى
2020م- 1442هـ

ديـــــوان العـــرب
للنشر و التـوزيـــع

ملحوظـــــــة: حقوق الطبع جميعها محفوظة للمؤلف

عنـــوان الكتاب: عين على الطريق

اســـم المؤلف: هونر كريم

التصنيف الأدبي: رواية

رقم الإيـــداع: 16269 / 2020

الترقيـم الدولي: 978 – 977 - 6830 - 30 - 1

تـصميـم الغلاف: د. محمد وجيه

التدقيـق اللغوي: د. هبة ماردين

التنسيق الداخلي: د. محمد وجيه

رقـــم الطبعـة: الطبعة الأولى

المديـــر العام: د. فادية محمد هندومة

دار ديوان العرب للنشر والتوزيع - مصر - بورسعيد

جوال: 00201211132879

البريد الإلكتروني: mohamedhamdy217217@gmail.com

حقوق الطبع والنشر لهذا المصنف محفوظة للمؤلف، ولا يجوز بأي صورة إعادة النشر الكلي أو الجزئي، أو نسخه أو تصويره أو ترجمته أو الاقتباس منه، أو تحويله رقمياً وإتاحته عبر شبكة الإنترنت، إلا بإذن كتابي مسبق من المؤلف أو الناشر.

عين على الطريق

رواية

هــونــر كــريــم

إهداء

إلى لحن حياتي ئاواز.

هونر كريم

****

[١]

قبل عشرين سنة، عندما كنت طفلة سألت جدي ونحن في معبد لالش لماذا رجالنا يعتمرون اليشماغ الأحمر؟، فأخبَرني بأننا لا نرتدي اليشماغ الأسود وإنما الأحمر، دلالة على فيض الدِماء التي سالت منّا هدراً بدون ذنَب في محاولتهم لإبادتنا فيما سبق.

ها هو الآن الزمن يُعيد نفسه ويتكرر الأمر ثانية.

أقفُ على امتدادِ الطريق، أدعو الله بأن يظهر زوجي سرمد هذهِ المرّة. أشدُ يديّ على صدري، أوشكت أنفاسي أن تَتقطع وأنا أميل رأسي عالياً، أحمّلق في الحافلة القادمة، وقد توقفت في الساحة الواسِعة للمُخيم، تجمهرَ الناس حول الحافلة يستقبلون القادمين، اندفعت من بينهم أحاول الاقترب منها قدر الإمكان، نظراتي تتوزع بين القادمين، قلبي يشتد خفقاناً والأمل يجبو في داخلي بأن يبرز (سرمد) هذه المرة.

تركت (رافو) في الخيّمة وأغلقت عليه بابها، ألتفتُ إلى الخيّمة بين حين وآخر والقلق يجتاحني من أن يخرج من مكانه؛ فهو كثير الحركة.

عدت أنظر أمامي والانتظار يذبحني، دقات قلبي تتصاعد رويداً رويداً. بدأ الناس ينزلون من الحافلات بملابسهم المتسخة ووجوههم المكفهرة، وقد غطى التراب والغُبار سحناتهم؛ كأنهم لم يغتسلوا منذ أن ولدوا، نساء متوشحات بالعباءات، خبت عيونهن من التعب. أطفال ممزقةَ أحذيتهم،

متورمَة أقدامهم من السير الطويل، رجال طالَ السواد سيماءهم، لا يعرفون كيف ومن أين حَلت عليهم تلك المُصيبة.

تندفع جماعة الإغاثة يحملون الماء والبسكويت، يوزعونها على اللاجئين الهاربين من بطش داعش.

توقفتُ أمام الحافلة، أحمّلق في الرجال النازلين لعلّي أجد سرمد بينهم، وجوه غريبة، مُدّماة يعتليها الحزن، لحى طويلة. إنني قادرة أن أميّز ملامح زوجي وإن أطالَ لحيته خوفاً من تلك الغربان، لا بُد أنه قد تغير ولكن لا يصعب عليّ أن أجدَه، بعضهم يلبس ملابس رثة، ومُمزقة أحياناً، ترقرقت الدموع في عيني، شدّدت أصابعي راجية أن يتبين زوجي بينهم.

تنطلق نساء من حولي، يعانقن بعض القادمين بصراخ وعويل.

كان عليَّ إيقافه، لماذا لم أصغِ لكلامه وأمنعه من حمل حقيبته، كيف تجرعَ قلبي وتركته يرحل، قامَ من كابوسٍ مزعج، ليَخبرني بأنه رأى طوفاناً في الحلم، وأنه مترددٌ في سفره إلى الموصل. أحسَ بأن مكروهاً ما سيحل بالمدينة. حمل حقيبته وسافر دون أن أعير أي أهمية لذلك الحلم المُحمل بالبلاء.

نزلَ آخر شخص من الحافلة، لم يبقَ فيها أحد، امتلأ قلبي حزناً، أدرت بصري وأخذتُ أحمّلق بين القادمين الذين ترجلوا من المركبة، لعلّي قد سهوت ولم أميّز سرمد جيداً، ثمة رجل عجوز قد أحدَودب ظهره، على اليسار رجل بدين، يحملُ حقيبة صغيرة، صبي يجر والدته، شاب نحيف جدّاً

تمَزقت ملابسه، لم أرَ بينهم سرمد، لوهلة رأيت شخصاً مـدّبراً شـعره يشـبه شعر زوجي، طوله وقامته؛ كأنه سرمد من الخلف، كان لوحده تائهـاً يبحـث عن شخصٍ ما. هرعتُ نحوه أنادي عليه، شددته من كتفه، ألتفـتَ إليّ وقـد طغىَ الاستغراب على محياه، كان رجلاً غريباً لم أعرفه، هـو أيضـاً ظـنَّ بـأنني إحدى أفراد عائلته أو امرأة قريبة له، اعتذرتُ منه فهـزَّ رأسـه وأدركَ بـأنني أبحث عن شخصٍ آخر.

توجهت إلى مسؤولِ المخيم (عبد الستار) أسأله، هل هُنالـك حافلـة أخـرى في الطريق. كان جالساً على كرسيه أمام المنضدة في الخلاء، وقد أمـالَ برأسـه الأصلع إلى الأمام، يكتب شيئاً ما في سـجِله، إنـه رجـل طيـب، يسـتجيب لطلباتي ولا يتوانى في المساعدة إلا أنه قليل الحركة عندما أطلب منه شـيئاً، يُطيل في تنفيذه، لا أعلم هل ذلك من كـثرِ مشـاغله، أو مـن بدانتـه الـتي تُعيق حركته جيداً؟ سألته بهلع؛ فاستدار بغتـة وأغمـض أحـد عينيـه مـن شدّة أشعة الشمس سائلاً:

- نعم... ماذا تريدين؟

- هل هنالك من حافلة أخرى ستأتي اليوم؟

- لا أظن ذلك... فقط قدمت هذه المركبـة مـن الجبهـات القريبـة مـن سـد الموصل، هؤلاء من استطاعوا الهروب من يد داعش.

تراجعت ململمة أطراف ثوبي، عدت أدراجي إلى خيمتي والحسرـة تتملكـني، ترى أين أنت الآن يا سرمد؟

اقتربت من الخيّمة، تنبّهت بأنني تركت رافو لوحده، كان صوته يتعالى من الداخل، ركضت إليه، كان لا يزال في مكانه، يحملق في نار المدفأة، يخافُ الدنو منها؛ بعد أن نبهته ليتوخى الحذر. كان قد بلغَ السن الثالثة، طفقَ يتحدّث بمفردات غريبة، فغرَ فاه عن ابتسامة صغيرة حين رآني، احتضنته وشددته إلى صدري، هل يدرك بأن والده الآن في مكان خطر؟ أم أنه لا يفقه شيئاً؟

دخلت (نازدار)، كانت قد جلبَت فنطاس ماء من الخزان المجاور، حيث يحتشدُ الناس أمامه ليملؤوا منه احتياجاتهم، وضعَتِ الفنطاس في زاوية الخيّمة، بدا الانهاك عليها، فهي قد تجاوزت الخمسين من العمر، لم تَعُد قادرة على الكثير من الأمور، إلا أنها لا تتوانى في أن تشغل نفسها وتبحث عن حاجة تُلهي بها وقتها، من أن تبيت ساكنة وترحل بأفكارها ناحية أختها ميان، كنت حزينة عليها، فحالها أسوأ مني. عَدلت من ظهرها، التفتَت إليّ وفي عينيها تساؤل عما إذا قد وجدتُ زوجي. أومأت براسي نافية، هزّت رأسها مُتأسفة وهي تقول:

-قلبي يخبرني أنه بخير يا كنار.

كُنا نعيش في منزلِنا الصغير الواقع شمال مدينة سنجار بمُحاذاة الجبل، مثل كلّ الصباحات، استيقظَتُ على صوتِ عصفور الكناري الذي اشتراه سرمد من الموصل، فهو يعشق صوته ويعتني به. يجلبهم من السوق، بينهم طيور غريبة الأشكال، جلبه ليعتني به قائلاً بأنه من فصيلة نادرة وأنّه في طريق

الانقراض، كما هو عليه نحن، نحن أيضاً مهددون بالانقراض يحاولون إبادتنا وإنهاء وجودنا على هذا الأرض.

في ذلك الصباح اختلطت أصوات وضوضاء الناس بصوت زَقزقة العصافير. ألقيت النظر من خلال النافذة على الشارع، ثمة خطب ما قد حل بأهلِ المنطقة، كانوا يحملون أغراضهم على المركبات ويغادرون مساكنهم، تفاجأت بالأمر، سمعت طرقاً على الباب الخارجي، نزلَت السلم بعجلة إلى الحوش وفتحت الباب، لمحت (أم سيبان) تهمُ بالذهاب كأن شيئاً ما يلاحقها، التفتت إليَّ وقالت بصوتٍ متهدّج:

-داعش اقتربَ من سنجار... الناس تهرب إلى الجبل.

كان النبأ غريب الوقع على أذنيّ، سمعت بهؤلاء القوم الذين يقتلون ويذبحون الناس على اختلاف أديانهم، انتابني الخوف، كيف سننَجو منهم، ترَكتني المرأة في حيرة وقلق، ماذا سأفعل وأنا وحدي في البيت مع ابني رافو، لقد سافرَ سرمد منذ أيام إلى الموصل ولن يعود إلا بعد غد، كان عليَّ التحرك بسرعة، الناس شرعوا يَخلون منازلهم ويتركون المدينة نحو جبل سنجار. رجعت للمنزل مذهولة لا أدري ماذا أفعل، هرَعت إلى الداخل وأخذت رافو في حضني، كان نائماً لا يدرك ماذا يحدث، فركَ عينيه وهو يرنو إلى وجهي ولا يعرف سبّب استيقاظه. لم يفهم ما يدور، بحثت عن حقيبتي، ملأتها بالضرّوريات وأخذت مستلزماتنا الخاصة، ونقوداً تركها لنا سرمد، سمَعت من بعيد صوت إطلاقات نارية، داهمني الفزع، فكّرتُ بزوجي، ماذا سيفعل

إن رجع إلى البيت ولم يجدني؟ هل عليّ انتظاره؟ كيف لي أن أخلي منزلي؟ ماذا سيفَعل إن لم يجدنا هنا؟ إلا أنّ الوضعَ خطيرٌ، بقاؤنا هنا سيهدد حياتنا، سيقتلوننا.

لم أخرج في حياتي من البيت إلى مكان دون علم زوجي، إلا أنّ الحال مختلفةٌ الآن، الناس يهربون من المدينة، حدقت في الصغير، حزنت عليه، ماذا سيفعلون به أن وقعَ في أيديهم، لم أتحمل تلك الأفكار، حملت رافو وخرجت من المنزل بسرعة. هرعت مع الناس خارج سنجار باتجاه الجبل، يبدو أنّ الجبل كان الملاذ الوحيد لنا كيلا يصلنا داعش.

وضعت نازدار الماء في القدرِ، أوقدت الطباخ الصغير الذي استلمناه من لجَنة الإغاثة الإنسانية، ألقَت في القِدرِ قطعتي بطاطا لقليهما. لقد قلَ استعمالنا للطباخ النفطي منذ أن قلت امِدادات الوقود لنا لكثرة اللاجئين الذين يرتادون المخيم. كان للمرأة طبع هادئ، لا تتكلم إلا قليلاً، فقد كانت شاردة الذهن تُفكّر بأختها (ميان) المخطوفة، أخذها داعش من سنجار وهي كانت مخطوبة لشاب يُدعّى (شمو)، إلا أنّ ذلك الشاب قد اختفى هو أيضاً ولم تسمع نازدار عنه أيّ نبأ ولا تَعلم إن كان حياً أم لا. كنتُ الشخص الوحيد الذي أقف بجانِبها وأواسيها برغم أن معاناتي لا تقلُ عن معاناتها، وكنت أصبِّرُها على أنّه ذات يوم سوف تعود لها ميان كما كانت، امتلأت عيناها بدُخان المدفأة النفطية؛ فأبعدت وجهها عن النار. جلست أمامي، أصبحت رفيقتي الوحيدة في هذه الحياة منذ اليوم الذي التقيتها فيه

مصادفة؛ عندما أنقذت ابني من موتٍ محتمٍ بجانب جبل سنجار حين هربنا إلى هناك.

[٢]

بعد أن هاجمَ داعش مدينة سنجار، ارتحلنا من المدينة ونزحنا إلى هذا المُخيم المخصص للاجئين الذين هربوا من يدِ داعش، انقطعت أخباري عن زوجي سرمد الذي كان يعمل حيَنذاك في المستشفى العام في الموصل، أثناء دخول داعش إلى المدينة. لم أعرف عنه شيئاً، وإلى يومنا هذا أترقب قدومه مع النازحين الذين يهربون من يدِ داعش إلى هنا، يَجلبونهم من الجبهات الأمامية بالحافلات إلى مخيمنا. كنت قَلقة عليه للغاية، ولم أجد طريقة تهديني لمعرِفة أخباره.

جلبونا إلى هذا المخيم قبل شهر أنا وطفلي رافو ونازدار مع الآخرين من النازحين، حَملونا من جبلِ سنجار، بعد أن عانينا الكثير من العوز والجوع والحرمان والحِصار، واستطعنا النجاة أخيراً. أحضرونا إلى هنا مع المجموعة الباقية من الإيزيديين، أعطونا خيّمة لوحدنا أنا ونازدار نسكن فيها، نازدار التي اجتازت الخمسين عاماً، عزباء فقدت أختها ميان في سنجار، وعلى الأغلب هي الآن بيدِ داعش، كنا في نفس الحال مع بقيّة الناس. كانت هي أيضاً تترقب الحافلات القادمة لعلّها تجد من بين العائدين أُختها المفقودة.

أعطونا المؤون الوقتية والأكل والطعام لنَستعيد بها طاقتنا التي فقدناها، نتيجة بقائنا وحصارنا في قمة الجبل، إلا أنه لم يَرتَح لي بال برغم نجاتنا من شرِ هؤلاء المسلحين؛ فمازال زوجي محاصراً في الموصل بيد داعش.

الناس يعتصرهُم الألم لمّا حدث لهم وما آلوا إليه، يدعون الله أن يفرج عنهم الكرب المضني، وينجيهم من المصيبة الكبرى. أما أنا فقد باتت لدي عادة تُلازمني كلّ الأوقات حيث أتابع الطريق الطويل الذي يفضي إلى الموصل، مُنذ شهر وعيني لا تفارق ذلك الدرب، أحدقُ في السفح المُمتد إلى السهل الواسع حيث تُسير المركبات، أترقب وأنتظر بلهفة قدوم أية مركبة تمرغ عباب ذلك الطريق، محملة بالفارين من أيدي داعش لعلّني أجد من بينهم سرمد.

كان سرمد متردداً في العودة إلى عملِه في المستشفى، بعد انتشار الشائعة غيّر المُطمئنة عن توغل زمرة من الإرهابيين إلى العراق. ذلك الصباح كالعادة استيقظت وأعددت الفطور له، كان يشتهي البيض المسلوق مع الطماطم والخيار صباحاً، يأكل جيداً قبل أن يسافر إلى الموصل. كان الوقت مازال مُبكّراً، نسيمٌ باردٌ يلف الأجواء ويداعبُ وجنتي، خرجت من المطبخ وولجت إلى غرفتنا، كان نائماً، تعلو وجهه سيماء هادئة تَنم عن براءةِ طفل لم يزل يجوبُ أحلام الصغار، لم أكن أعلم أن ذلك الصباح سيكون المرة الاخيرة التي أشاهده فيها على هذا المنوال، جلست بجانبه وهمست في أذنه

أدعوه للاستيقاظ، فتح عينيه السوداوين اللتين تشبهان حبتا عنب، فغرَ فاه بابتسامة جزلة، همسَ بحبور:

- ما أروع الصباح في عينيك العسليتين أيتها الأميرة.

كان يدعوني (الأميرة) ويغازلني بهذا اللقب. بعد أن استفاق سردَ لي ما راودته من أحلامٍ غامضة انتابته ليلة أمس كأنها كوابيس، ثمَ مالَ بعينيه المدَورتين ناحية النافذة يحدّقُ في بزوغ خيوط الشمس التي تغلغلت في أرجاءِ الغرفة، توجست في ذاته بعض التردد من القيام بتلك الرحلة، لاحظت ذلك من خلال ملامحه المُنكمشة، قال بخفوت:

- لدي إحساس غريب... أرغب في البقاء هنا، قلبي يُنبئني بخطبٍ ما.

كنت أخاف أن يحل به مكروهٌ ما في الطريق، طلبت منه الانتباه لنفسه وتوخي الحيطة والحذر، لم أفطن بأن ما كان يختلج في ذاتِه إنما هو أمر آخر غير الذي كنتُ أخشاه، ويا ليتني التمست منه البقاء ولم أدعه يسافر، كانت والدتي تخبرني بأن الأحلام دليل لِمَا ستؤول إليه الأمور في أيامنا المقبلة، وأنها إضفاءة تعكس الواقع بشكل آخر، وما رآه سرمد في تلك الليلة كان إشارة له بمكروه ما سيحدث له، إلا أننا لم نتوقع أن يصل الحال إلى ما آل إليه، فلم يكُن في حُسبان أحد أن يفضي الأمر إلى هذا الحد من الخطورة.

برغم التردد في البقاء في المنزل إلا أنّ باله كان لدى مرضاه الراقدين في المستشفى، كيف سيكون حالهم إذا ما توانى عن الذهاب إلى عمله، كان

مخلصاً ومتفانياً في عمله كثيراً، يرعى مرضاه ويهتمُ بهم إلى أقصى حد، لذلك كان محط إعجاب مديره والأطباء وزملائه الآخرين، يستعينون به كثيراً ويثقون به لأنه لا يهمل عمله للحظة ويلتزم بنصائِح الأطباء فيما يقرّرونه تجاه مرضاهم من أجل علاجهم.

حمل حقيبته وقبلني من رأسي وودعني، كنت أحمّلق في قوامه وهو يبتعد عن أنظاري خلال الطريق. ملأت عينيّ به إلى آخر لحظة حتّى توارى عني، لم أدرك ساعتها بأنني لن أراه مرّة أخرى. يعتليني الندم ولكم أتأسف على ذلك اليوم، ماذا لو لم أسمح له بالرحيل؟ كان ينوي البقاء إلا أنني لم أِلح عليه أو أطالبه بالمكوث. بقيت صامتة لاختياره، ولم أُبادر بكلمة من أجل إيقافه، كثيراً ما ألوم نفسي على سكوتي والندم يجتاح كياني ويقتات من روحي.

بينما نحن نتسلق الجبل لاحت لنا رايات سود ترفرف متجه صوب المدينة بمركباتهم العديدة، كنت أحمل رافو في حضني وعلى ظهري أحمل حقيبة من المؤون. ربطته أمام صدري وبيدي الأخرى أتمسك بالأحجار المنغرزة في الأرض أحاول جاهِدة تسلق الجبل. جميع من في المدينة اعتلوا الجبل من جميعِ الاتجاهات، حشد غفير من الناس حولي يصعدون إلى القِمة محاولين الابتعاد عن المدينة وتفادي الوقوع بيد هؤلاء البشر- والعبور إلى الطرفِ الآخر من الجبل حيث منطقة آمنة لن تصلها أيديهم، الخوف والرعب غاص في كيانهم، رجال وشيوخ ونساء وأطفال انتشروا فوق سفح الجبل، كلٌّ

في طريقِه يحاولُ النجاة بجلدهِ. سرى لغط بين الفارين بأنه لا محالة سوف يأتون إلينا ويقتلوننا جميعاً، ستقع مجزرة كبيرة وإبادة جماعية لنا. تفرق الناس في كلّ حدب يتسلقون الصخور الوعرة، كان علينا أن نسير طويلاً للوصول إلى قمة الجبل العريض والنزوح إلى الطرف الآخر.

بعد مسيرة شاقة قاربت الساعة أدركَني التعب وخارت قواي وانقبضت نفسي، كنت أجول بين الوجوه لعلّي أجد شخصاً ما من بينهم أعرفه؛ ليساعدني في حملي ويرافقني، إلا أنّ الجميع كانوا في وضعٍ ميؤوس منه، كلٌّ يبغي النجاة بروحه. تطلب الكثير من المشقة إلى أن وصلنا إلى أعالي الجبل، هناك تناهى إلى سمعنا من الأسفل صوت إطلاقات نارية تلعلّع في الأجواء والدخان يتصاعد من بعض الأماكن في المدينة، لبثتُ في مكاني لوهلة وتذكّرت سرمد، تسربت إلى ذهني فكّرة مرعبة شرد بالي وتجمد الدم في عروقي، ماذا لو كان سرمد الآن في طريقه إلى المنزل. ماذا سيحصل له إن دنا من هؤلاء.

السفح مترامي الأطراف لا نهاية له، رؤوس سوداء تحت وميض أشعة الشمس انتشرت في كلّ الأنحاء، في الجانبِ الآخر راح الناس يحثون السير وقد أتعبَهم الصعود وهم مفزوعون من تِلك المباغتة، صوت إطلاقات نارية كثيفة تمرغُ عباب السماء، شبابٌ من أهلِ المدينة عند حافة الجبل، يقفون في وجه داعش يحاولون منعهم من الصعود إلينا. كنت خائفة جداً، ولدي رافو بدأ ينوح ويبكي ويفتحُ فمه على وسعه. أبكي على حالي وحال الناس،

سرتُ مع الموكب ونفذنا إلى الجهة الأخرى من الجبل، كان الجميع يبغون التوجه شمالاً باتجاه مدينة دهوك فالمكان آمن هناك. أنهكني حمل رافو فقد كان ثقيلاً ولم أعد أقوى على المسير وهو في حضني، أنزلتُه عن كتفي ووقعت على الأرض من شدّة التعب. الشمس تلفحُ وجوهنا لتصبغ سُحنتنا باحمرارٍ قانٍ. لم يكن الجلوس والاسترخاء يُجدي نفعاً، كان علينا مواصلة الطريق والسير إلى بقعة آمنة. بعد ساعات ولجنا إلى الجانب الآخر من الجبل وبدأنا ننزل عن ذروتِه، كانت الوجوه مُكفهرة لا أحد يأتمن على حياتهِ. الجبل واسع في القمة كالسهل يمتد إلى ما لانهاية، من وجهتي رأيت زرقة السماء تختلط بربوعِ الأرض، أثناء نزولنا إلى الأسفل من الجهة الأخرى، لاحَت أمامنا رايات داعش، وقد استداروا حول الجبل وطوقوه من جميع الجهات وأغلقوا علينا منافذ النجاة، كأنهم مصمّمون على شد خناقنا والقضاء علينا.

قالَ سرمد لقد حلمت بالبحر وقد طافت وغرقت مدينتنا، لقد كانت طوفان عظيم أغرق العالم بأسره، من جديد كنا نحتاج إلى سفينة جديدة، سفينة نوح أخرى لننجو بأرواحنا، فيما بعد بحثت عن تفسير لحلمِه وجدت أنّ البحر وغرق مدينة بالماء إشارة لبلاءٍ وكربٍ سوف يصيبُ تلك المدينة، وهذه ما حدثَ بالفعل. لقد اجتاح داعش المدينة وهنا فوق جبل سنجار الجبل الذي وقفت عليه سفينة نوح ونطحَت به كما يقال (سن – جار) كنا بالفعل نحتاج إلى سفينة نوح جديدة للخلاص من طوفان هولاء

المسلحين والنجاة منهم وهم يحيطون بنا من جميع الجهات كأمواج بحر هائج.

دخلت نازدار فاتحة عينيها على وسعِها؛ لتخبرني بأن هناك مركبة جديدة محملة باللاجئين قدمت إلى المخيم الآن، وضعتُ رافو في مكانه وطلبت منها أن تعتني بهِ، انطلقت بسرعة خارجة إلى الساحة، لاحظت مركبة عسكرية محملة بمجموعة من النازحين قد توقفت لتوّها هناك.

[٣]

تناهى إلى مسمعيّ صوت رجل يناديني من خارج الخيّمة، خرجت وإذا بي أجد مسؤول المخيم السيّد (عبد الستار) مع رجل معتدل الهِندام، يبلغ من العمرِ الأربعين يتكئ على عكاز في يده الأيسر، عرفني به سيّد عبد الستار:

- الأخ (رافي) جاءَ من مكان بعيد، إنّه يسأل عنك؟

انتابتني الحيرة عندما ذكرَ اسمه، كأنّني قد سمعت عنه سابقاً من سرمد، توجسَ قلبي وبدأت أحسَ بتسارِع خفقانه يرفُ بين صدري، عندها تذكّرته، نعم إنه إحدى أصدقاء سرمد، حدثَني عنه مراراً، إنّه مُمرض يعمل معه في مستشفى الموصل، يكنُ له احتراماً جلياً، توسعت عيناي وانحبسَ لساني وأنا أقفَ واجمة منتظرة ما سيبوح به، أرى خبراً غيّر سار يطغى على سيمائه، رحبت به، مطّ شفتيه بابتسامة صغيرة قائلاً:

- لقد سألت عنكم كثيراً، ذهبت إلى عدةِ مخيمات والآن وجدتكم هنا قالوا بأن أهالي سنجار يتواجدون هنا أيضاً.

أزحت باب الخيّمة جانباً وطلبت منهما الدخول، استأذن منّا السيّد عبد الستار وانصرف إلى أمره، دخلنا إلى الخيّمة، استقبلته نازدار باستغراب وفي عينيها تساؤل عمن يكون هذا الضيف وهي تهزُّ رأسها مستفسرة، أخبرتها:

- إنّه سيّد رافي أحد أصدقاء زوجي، كان يعمل معه في المستشفى.
عندما علم أنني أعرفه اطمَأنَ للأمر. طلبت منه الجلوس، وضعَ عكازه جانباً، كان يبدو عليه التعب من كثرة البحث مع عكازه هذا من مخيم إلى آخر، أحضرت له كأس ماء، ارتشفَ منه، وبادر بالكلام:
- لقد أنهكني قدمي المُدمى هذا، وأنا أجول باحثاً عنكم. كما ذكرتِ، فأنا أحد أصدقاء زوجك، أحببت أن أزوركم وأسأل عنكم وأتفقد أحوالكم، فقد كان سرمد كثير التعلق بعائلته، غالباً ما يتحدّث عن ولده رافو ويشتاقُ إليه.
قلت له وأنا في شوق لمعرفة أخباره:
- هل بحوزتك أيّ نبأ عن زوجي سرمد؟ أين هو؟ وماذا حدث له؟
تنهد بعمق وهو يعلم ما فيَّ من شغف لسماع أخباره، تردد:
- أتأسف لما جرى... هؤلاء الملاعين باغتونا عندما دخلوا الموصل، لم نفطن أن يقع هذا، يهرب الجيش من المدينة ويتركونها لداعش بهذه السهولة والسرعة. كنت حينها في سكننا الخاص للمقيمين في دار الأطباء والممرضين، الذي يقع بالقرّب من المستشفى. كنت في غرفتي التي أشارك سرمد بها، جاءني أحد المُضمّدين وأبلغني بما جرى، وأنّه من المستحسن أن نترك المدينة حالاً. عند ذاك اتصلت بعائلتي في برطلة وأبلغتهم بما يحدث، وأنني سوف أخرج من المدينة حالاً عائداً إليهم، ومن ثم اتصلت بسرمد لأعلمه بالأمر، كان في واجبه أثناء ذاك، هاتفته على جهازه الخاص، وإذا بي

أسمع جرس الموبايل يرنُ داخل الغرفة بجانبِ التلفاز؛ لقد نسي سرمد هاتفه هناك في الشاحنة. لم يكن أمامي سوى أن أستعجل في تغيير ملابسي، بعد بُرهة خرجت متوجهاً إلى المستشفى إلا أن صديقي كان قد أعدَ مركبته للرحيل، وأبلغني بأن لا وقت لدينا للانتظار، أخبرته عن سرمد، قال والرعب يعتليه بأن أنباء دخول داعش قد وصلت إليهم الآن، وسوف يتصرفون بما يستدعي الأمر، لا داعي للذهاب إلى هناك، سيداهمنا داعش. كان على عجل من أمره، لم يكن لدي سوى أن أركب معه فهو لم يعطِني فرصة لتوديع سرمد، لم يكن مستعداً للانتظار أكثر، هو أيضاً كان مسيحياً يسكن برطلة. ركبت معه وخرجنا من الموصل بسرعة قبل أن تدركنا أيدي داعش... لا أعلم ما قد وقع لسرمد، إلا أنني تركت له باب غرفته مفتوحاً وهاتفه في مكانِه. كنت أظن بأنه سيجد طريقاً ويرحل بسرعة عندما يسمع الأخبار. آخر مرة رأيته فيها كان ذلك الصباح، عندما ودعني ذاهباً إلى المستشفى بعد استبدالنا المناوبة. فيما بعد أخذت عائلتي وهربنا من برطلة أيضاً بعد أن وصلَ داعش إليها أيضاً، فرّ جميع سكان برطلة؛ فأغلبهم مسيحيون. لم يهدأ لي بال منذ أن تركته لوحده ورحلت، لذلك رغبت بأن أطمئن عليه وأتفقد حاله، فقدمت إلى هذا المخيم لأزوركم. كنت أتمّنى أن أجد سرمد معكم، وعندما وصلت إلى هنا، أخبرت مُدير المخيم بأنّني أبحث عن رجل يدعّى (سرمد خيري سيدو) للوهلة الأولى زعم بأنه لم يسمع بهذا الاسم، ثم تذكّرك أنتِ، تفاجأت

عندما أبلغني السيّد عبد الستار بأنّ زوجته تسكن هنا وهي في أمل انتظار عودة زوجها، لقد أحزنني الأمر فعلاً، كنت أتمنى أن أراه بينكم.
إذاً كما قال السيّد رافي، كان سرمد في عمله أثناء دخول داعش، ولكن هل ترك المستشفى لحظة دخول داعش؟ أم أنه بقي يلازم عمله ويعتني بمرضاه بما يترتب عليه من التزامات وواجبات تجاههم؛ ولم يتخلَ عنهم؟ أم لعلّه قد رحلَ بعد سماعه النبأ؟ أم أنّ أحداً لم يخبره بالأمر في الوقت المناسب ليهرب؟ دارت في خلدي مئات الأسئلة، قلت له:
- أنني قلقة عليه، أنتظر أن يظهر في أية لحظة، ما أنفك أتابع الحافلات التي تجلب اللاجئين الهاربين من أيدي داعش، عسى أن أجد سرمد قادماً معهم. لا أعلم ما جرى له، هل غادر المستشفى بعد ذلك بسلام؟ ربما كان الطريق إلى سنجار خطراً حينها، ولم يفلح في الرجوع إلينا. إلا أنني موقِنة، مهما يكن، أنه لن يتركنا لوحدنا نتحدى هذا مصير، كان سيسلك طريق العودة إلى سنجار الحافل بالمخاطر حتّى بوجود داعش، ولكن هل وقعَ في أيدي داعش؟ إن حصل ذاك فاعلم بأنه لن ينفذ من بين أيديهم بسهولة، فهو أيزيدي ويتبين ذلك من شاربه الطويل. أما نحن فيوم اقتحامهم لمدينتنا هربنا أنا ورافو إلى الجبل، وبقينا هناك، وقد حاصرنا داعش لفترة، إلى أن تم اقتحامهم من قبل قوات البيشمركة وأنقذونا وجلبونا إلى هنا.
تنهد الرجل وأطلق حسّرة مدّيدة، وقد أصابه اليأس:

- يا ليتني لم أرحل مع صديقي حينها، كان من المفترض أن أذهب إلى المستشفى لأخذ سرمد معي. إنه خطئي، كان من الواجب ألّا أتركه وحيداً.
كان واضحاً أنه يلوم نفسه ولم يعلم بأن سرمد لم يزل باقياً في الموصل، خمن بأنه قد خرج مع الناس أيضاً، تركه لحاله، إلا أنه لو فعل ذلك ولم يذهب مع صديقه لربما وقع هو أيضاً في شرك داعش... واصل جميل كلامه:
- لقد كان متفانياً في عمله جداً، لا يفارق مريضاً إن لم يتأكد من أنه قد شفي، واشتهر فيما بيننا بتلك المعاملة اللطيفة والحسنة مع المرضى، ومتابعة حالاتهم بدقة، في الآونة الأخيرة؛ كان قد لازم امرأة عجوز، وجلس بجانبها ليتيقن من شفائها، كان يطعمها ويرعاها ويلازمها ليل نهار كأنها والدته.

أخبرتني والدته بطبيعية ولدها سرمد وكم هو طيب القلب وحنون، والدته التي بقيت طوال حياتها أرملة لم تعِش مع زوجها سوى سنة واحدة. فحينما يتوارد إلى ذهني كلمة الحرب أتذكّر والد سرمد وماجرى له، الذي ما أن تزوج من والدة سرمد حتّى سحبوه من كتفه إلى جبهات الحرب التي دارت بين العراق وإيران طوال ثمانية سنوات، ألبسوه ثوب الجندي وحملوه سلاحاً وأرسلوه إلى المواقع الأمامية للمعركة، ولم يرَ الهناء من زواجه.
كان والده (خيري) فلاحاً يملكُ قطعة أرض في قرية (كوجو) التي يقطن فيها، تزوج من بنت عمه (عايدة) ولم يدم زواجهما سنة عندما جاء رجال من الحزب الحاكم إلى الحقل دون سابق إنذار يبحثون عنه. يومها كان

يعمل بكد، يعد الحقل لزراعة الخضار ويشق السواقي، فجأة يجد أمامه مجموعة من الرجال مدججين بالسلاح. طلبوا منه أن يريهم هويته فأخبرهم أنها في المنزل، عرف بأنه مطلوب للحرب، لم يكن أمامه سوى أن يذعن لأوامرهم، رمى الفأس من يده وهو لم يكمل حتّى حفر الساقية وسار أمامهم إلى المنزل. كانت (عايدة) في المنزل وهي حاملة بسرمد في شهرها الأخير، استغربت من عودة رجلها في هذا الوقت المبكر من اليوم فأخبرها بأن رجال الانضباط جاؤوا يستفسرون عنه، خافت زوجته كثيراً. قدم لهم هويته، حينما رأوها، استشاطوا غضباً وطوقوه من كتفه وأبلغوه أن سنه مطلوب للانظمام إلى الخدمة العسكرية، سحبوه إلى المركبة العسكرية، كانت هناك مجموعة أخرى من الشباب والرجال في المركبة من الذين جُمعوهم من القرى المجاورة حتّى من دون أن يودعوا عوائلهم. كذلك خيري لم يتيحوا له أي مجال لكي يودّع زوجته التي كانت تلزم بطنها المنتفخ وهي تبكي، أبلغهم بأن زوجته سوف تلد الأسبوع القادم وأنه من الواجب أن يكون بجانبها عند الولادة، حاولَ الرجل أن يتفاهم معهم ووعدهم بأن يلتحق بنفسه إلى الجبهة ما أن تلد المرأة، لم ينصتوا لتوسلاته أركبوه المركبة وأخذوه بعيداً إلى مركز إعداد الجيش الشعبي وألبسوه الملابس العسكرية وأعطوه سلاحاً وأرسلوه إلى الجبهات الأمامية للقتال، هناك لم يطلْ مكوثه في الحرب ولم يرَ ذلك الاقتتال العنيف الذي دار بين الجانبين والدماء التي جرت سدىً، عادَ الرجل إلى زوجته التي ولدت سرمد لتوّها والتي كانت في

انتظار رجوعه لتريه ولده البكر، إلا أنّ الرجل عادَ إليهم في جنازة، لم يبصر ولده سرمد، ولم يرَ سرمد أباه في حياته إلا في جنازة، ولدَ ووالده قد استشهد في الحرب، حينما أعادوا جنازته فوق مركبة صغيرة لبيته، أعطوا زوجته ورقة مطوية مبعوثة من رئاسة الحرب يبلغونها بأن زوجها قد استشهد دفاعاً عن الوطن وأرضه.

كلما كان يسرد لي سرمد تلك الحكاية كانت عيناه تدمع ومسحة حزن تلفح وجهه لأنه لم يرَ والده، أو أنه يشتاق إليه فهو لم يرَه للحظة منذ أن رأى النور، وإنما كان يبكي لما حلَّ لوالده؛ فلم يدُم زواجه سنة وأخذوه عنوة إلى الحرب ولم يدعونه يرى ابنه، وقد تركوا والدته تعاني أمد الحياة فيما بعد كأرملة وهي لم تعِش الحياة الزوجية إلا لفترة محددة.

كلما أفكر بما قاله سرمد وأجد له تفسيراً وأقنعُ نفسي به بأن مايحدث لنا قد جرى وستجري على غيرنا، ويجب أن نرضخ للواقع، إلا أن نفسي- يحترقُ أكثر ويتأجج، لماذا يكون مصير سرمد كمصير والده الذي ما أن تزوج حتّى قتل في الحرب، فها هو أيضاً ما أن تزوج جاء داعش وانتهى إلى مصير غير معلوم.

[٤]

جلستُ مكورة نفسي أمام سيّد رافي، نكست رأسي وأنا أصغي لكلامه وهو يسردُ تفاني وإخلاص سرمد في عمله:

- لكم أبلغته أن لا يُبالي كثيراً بما يمر به المريض ولا يتألم لكل حالة مرضية تحدث. كان يعتبر كلّ مريض كأحد أفراد عائلته لا يتركهم دون أن يتم علاجهم... كان دائم الحركة في المستشفى، وقد ذاع صيته بين جميع العاملين في المستشفى من الممرضين والأطباء، حتّى أنه عندما طلب من المدير نقله ليعمل في (مستشفى سنجار)، امتنع المدير ورفضَ ذلك، لم يرغب أن يفقد موظفاً كفئاً مثله، كأنه عملة صعبة يعز فقدانها، فالمدير كان يتمسك بكلّ موظفٍ جديٍّ في عملهِ ومتفانٍ في شغله، ويبقيه لديه في المستشفى، ولا يسمح له بالانتقال إلى مكان آخر. وقد طلبَ من سرمد أن ينقل أهله إلى داخل الموصل ويؤجر لنفسه بيتاً، إلا أنّ سرمد رفضَ الأمر، معتلاً بأنه لا يقدر على دفع تكاليف الإيجار وأنّه في الواقع يملك بيتاً في سنجار لا يرغب في أن يفارقه، وسنجار هي مدينته التي ترعرع فيها.

كانت نازدار مازالت واقفة في مكانها تصغي إلى أقوال الرجل وهي تضع الفوطة على فمها. أردف السيّد رافي:

- كان سرمد من أعز أصدقائي، رجل خلوق ومحبوب لدى الجميع، يعتز به الأصدقاء، كريماً يحب الخير للجميع، يساعد رفاقه أن طلبوا منه شيئاً،

حتّى أنه في بعض الأحيان كانوا يستغلون طيبة قلبه ويدفعونه إلى إنجاز مهمة ليس هو بمسؤول عنها، كأن يطلبوا منه تفقد حالة مريض ليس في جناحه، فيذهب بدون تردد ويهتم بالمريض بنفسه.

هزّ راسه ندماً، أردف:

- أتمنى أن يكون بخير... عليكِ أن تصبري وتتحملي فراقه الصعب. أمل أنه في مكان أمن، ربما سيعود ذات يوم سالماً إلى يديك. سأتفقد أخباره وأسأل عنه من خلال أصدقائي المتواجدين في الموصل لعلّ لديهم أيّ نبأ عنه.

رجوته أن يسأل عنه ولا يتوانى في ذلك، ويعلمني بأي خبر يستحصل عليه من هؤلاء، ربما يجدونه أو يدرون ما حصل له ويطمئنونه عليه. وعدني بأن يبذل قصارى جهده بغية ذلك. في النهاية أعطاني رقم هاتفه، وقال قبل أن يودعني:

- إن احتجتِ إلى شيء، رجاءً لا تتواني وتتصلي بي، فإنّ معزة سرمد عندي كبيرة.

حمل عكازه دون أن يخبرني ماذا حدث لقدميه، وكنت أخجل من أن أسأل عنه، لربما قد هربوا أيضاً من برطلة سيراً على الأقدام وأدمت قدميه. قامَ ورحل وترك في جعبتي الكثير من الأسئلة والشكوك فيما قد دار لزوجي، وكلي أمل بأن يتمكن السيّد رافي من الحصول على أيّ خبر ويتصل بي بعد أن أخذ رقم هاتفي الجوال.

تمرُّ الأيام، أحس بأن رافو يحن إلى والده أكثر، كان ذلك بادياً عليه، فغالباً ما كان يسألني "أين بابا الآن؟ ولماذا لا يأتي إلينا؟" فأسوق لهُ أعذاراً واهية؛ بأنّه يعمل في مكانٍ بعيدٍ، وعندما ينتهي من عمله سوف يعود إلينا، ويعود بعد أيام ليسأل ويقول: "متى ينتهي عمل بابا؟ لماذا هذه المرة طال غيابه؟ لم يكن يغيب عنا سوى أيامٍ معدودة ويعود"، فأبلغه بأنه قد أرسل إلى مكان آخر ليعمل، عمله يتطلب منه البقاء. ثم يتساءل إن كان هناك مكروه ما قد حلّ به "هل هرب بابا أيضاً من يد هؤلاء الرجال السود؟" فأطمئنه بأن والده في مأمنٍ من هؤلاء الرجال. فيرد عليّ قائلاً، ساداً عليّ كلّ المنافذ: "إذاً لماذا لا يتصل بك على هاتفك ويتكلم معنا؟"، كنت أعلم أنه يحن إليه كثيراً، كان سرمد يداعبه ويلعبُ معه كثيراً ويحنُ عليه، فاعتاد رافو على وجوده.

كان يجب أن أجد له منفذاً ليخرج من قوقعتِه هذه، ويرفهَ عن نفسه وينسى ولو قليلاً غياب والده. أخذَ يتسكع في أطراف الخيّمة ويلعب لوحده، وبعد مدّة وجد له صديقاً في الجوار وبدأ يلعب ويندمج معه.

كان الصبي يدعى شيرزاد، يعيش في الخيّمة المجاورة لنا، يكبر رافو بعام، جاء مع أهله من سنجار أيضاً. يملك ديكاً، يجلبُه دوماً ويلعب به مع رافو، يطاردانه مراراً، وقد أعجبه تلك الملاحقة، في بعض الأحيان تستدعي أم شيرزاد رافو وتطلب منه مشاركة ابنها في تناول البيض. ذات يوم عاد رافو متسائلاً:

- شيرزاد أخبرني بأن داعش أن أمسك بنا سيقومون بقطع رؤوسنا.. لماذا يفعلون ذلك بنا؟

علمت بأن الصبي سمعَ ذلك الكلام من والديه، لم أعرف كيف أرد عليه وأشرح له لماذا ينوون قَتلنا. ولكن ماذا يعرف هو عن الدين وكيف سيفهم ويدرك بأن اختلاف الأديان سيؤدي إلى قتل الآخر. كنت أريد أن أبحث عن كلمةٍ ما أطفئ بها استفساراته، اختصرت له الجواب بكلمة:

- لأننا أيزيديون.

فغر فاه متسائلاً:

- وماذا يعني أن نكون أيزيديون.؟

- هناك اختلاف في الدين... أنك مازلت صغيراً من أجل أن تدرك كلّ هذا.

- شيرزاد قال لذلك هربنا من بيتنا، لأن هؤلاء الرجال السود كانوا ينوون قتلنا كلنا.. أنهم يطاردونا نحن فقط.

- هؤلاء يحاربون أيّ شخص لا يعرفونه.

حتى الأطفال بدؤوا يعلمون من الآن ماهو فارق الأديان وكيف يتعامل الناس معنا بهذه الشاكلة.

[٥]

تجمع العديد من الشاحنات في ساحةِ المخيم، كلّ منها تحمل مواد من الإغاثات والمساعدات المختلفة تبرعت بها منظمات إنسانية ووهبها أناس من مختلف البقع للاجئين. عندما سمعت بخبر توزيع المساعدات، أخذت رافو وسرت أصطفُ مع النازحين الذين احتشدوا بغية الحصول على أيّ شيء يمكن أن يقع بين أيديهم، فقد هربنا من منازلنا بملابسنا دون أن نحمل معنا أية معونة.

ناديت على نازدار كي تحضر هي أيضاً عسى أن تحصل على وجبة إضافية. كانوا قد جلبوا معهم كلّ المستلزمات الضرورية والأساسية من المواد المنزلية من فرش النوم والمدافئ الكهربائية والنفطية، ومواعين وقدور الطبخ، بالإضافة إلى مؤن الطعام من الرز والطحين والسمن والبرغل، وغيرها مما نحتاجها كذخيرة، من أجل الشتاء الذي سيقبلُ علينا ونحن في خيامِنا. حدثت أن صدرت جلَبة وضوضاء بين مجموعة من اللاجئين، كانوا قد اندفعوا نحو المركبات بطريقة عشوائية وأخلوا بالصف. نشبت عراك بين رجلين لم أفهم سببه، إلا أنّ القضية على ما تبدو حول حصتهما من المساعدات؛ فاندفعت مجموعة من الرجال لفض النزاع بينهما. عند ذاك تقدم عبد الستار غاضباً، فضَ الخلاف، وطلبَ من الجميع الصمت وألغى عملية توزيع الإغاثات على الناس، مبرراً أن الأمر يجلب النزاع بين النازحين وهناك من لا يحترم

الصف. فقام بتبديد الصف، وأمر من الحشد بالعودة إلى خيامهم، وهو سيتولى بدوره توزيع المواد عليهم وهم في خيامهم بالتساوي، كلّ واحد سيحصل على حصته دون زيادة أو نقصان.

أعجبتني الفكرة، فأنا كامرأة لا أستطيع منافسة الرجال والاندفاع بينهم إلى المقدمة؛ لأحصل على ما أريدها. رجعنا أدراجنا أنا ونازدار إلى خيمتنا، وتفرقَ الجمع دون أن يستلموا شيئاً.

في الخيمة التقطت نازدار فنطاس الماء، وتوجهت لجلب الماء من الخزان المجاور، ثم قامت بإعداد الطعام.

تذكّرتُ اليوم الذي تعرفت فيه على نازدار. كنا حينها فوق الجبل نحتمي من غزو داعش، ونترقب بخوف تسلقهم نحونا، فقد حاصرونا من جميع الجهات، وأحكموا طوقاً حول أطراف الجبل، وكانت هناك أنباء عن استعدادِهم لهجومٍ كاسحٍ نحونا والقضاء علينا. كانت قمة الجبل مُقفرةً، لا يوجد فيها إلا القليل من الشُجيرات الصغيرة، نحتمي تحتها من حرارة الشمس اللافِحة. الكثير من الأطفال بدؤوا لا يحتملون الظروف الشاقة التي مرّرنا بها، مات الكثير منهم تحت وطأة الحر والعطش، بقينا محاصرين لفترة طويلة، دون أن تصلنا أية أمدادات أو معونة، ولم يكن هناك من منفذ للنجاة. انزوينا هناك نعاني لوحدنا من دون أن يكون لنا مكان نأوي إليه أو نستظل تحته، ودون أن نأكل شيئاً، توزع الناس فوق السفح وانتشروا في أماكن متفرقة.

كنت أحاول قدر الإمكان أن أرضع رافو من حليبي الذي بدأ يجف رويداً رويداً، أضع خماري فوق وجهه لأصنع له ظلاً يقيه أشعة الشمس. برغم أنه لم يكن ثمة مورد أتغذى عليه من أجل أن يتجمع الحليب في ثديَيّ، لكنني لم أتردد بغية الحصول على تغذية لنفسي، فشرعت بالتهام أوراق الأشجار، أقلبها وأمضغها في فمي ثمَ أبتلعها عنوة، اشتد الجوع على الناس، وهلكَ البعض منهم، ولم يقوَ الكثيرون على الاستمرّار والحركة، وقعدوا لا حول لهم ولا قوة. لم تعد لهم القدرة على تحدي الظروف القاهرة؛ فبدؤوا ينتظرون موتهم بصمت، إلى أن جاء اليوم الذي سمعنا فيه أصوات طائرات سمتية تقترب من سفح الجبل، احتلت الأجواء وبدأت تنثر علينا المؤون من الغذاء والماء. هرعَ الناس باتجاه المواد التي شرعت تتطاير من السماء، وأخذت الحشود تتشاجر وتتنافس من أجل الحصول على قنينة ماء، يتدافعون راكضين باتجاه الصناديق التي تتطاير علينا من مختلف الجهات، تلك الإغاثات أنقذتنا في النهاية، ولكن بعد فوات الأوان، فقد هلك الكثير من الناس. لحظتها كان رافو في يدي منهك القوى، وكنت أسير بصعوبة، فقد خارت قواي وجف حلّقي. أتعثر في مشيي غالباً، عندما رأيت الناس يركضون إلى تلك الجهات؛ هرعت خلفهم، أشمّرُ يدي محاولة الحصول ولو على قطعة خبز صغيرة بغية أن أسد بها رمق طفلي. لم أكن قادرة على منافسة هؤلاء الرجال والشباب الذين اندفعوا بضراوة نحو الصناديق، لم أحصل على شيء، حتّى أنني من شدّة الزحام، لم أستطع

الاندفاع نحو الأمام والاقتراب لرؤية ما قد رموه. ولكن بعد برهة بانت طائرة أخرى، وانخفضت تحوم مقتربة منّا كثيراً، لدرجة أننا كنا نرى الطيارين بوضوح، بدؤوا بقذف المؤن نحونا، لم تنزل الطائرات في مكانِها ولم تتوقف، بل استمرّت بالتحليق مسافة قريبة من الأرض، ونحن نهرول خلّفها، والرجال الموجودين في الطائرة يرمون بالمواد نحونا بعشوائية، يبعثرونها في كلّ الاتجاهات ليحصل الجميع على حصة من المؤن. أثناء ذلك وقعت بالقرّب مني قطعة صغيرة من البسكويت، حاولت الإمساك بها لكنها تدحرجة باتجاه حافة سفح، أطلقت عزمي وأسرعت الخطى نحوها، عند ذاك لاحظت امرأة أخرى تهرع محاولة الاستحواذ عليها من جهة أخرى، كانت أقرب مني إليها واستطاعت أن تمسك بها قبلي، أطلقت يدي نحو كفيها محاولة انتزاع القطعة من بين يديها، كانت متمسكة بها بشدة، بدأنا نتدافع ونتصارع بصمت، فلم نقدر على الصراخ أو الجدال، إذ أتعبتنا الظروف الصعبة، حتّى شجارنا بات صامتاً، استطاعت المرأة بقوتها أن تأخذ مني القطعة عنوة وتذهب غاضبة، ثم لوهلة توقفت، توسعت عيناها عندما رأتني أحمل طفلاً في حضني، كما لو أنها لم تدرك ذلك في البدء. لبثت في مكانها، وكأن ضميرها لم يطاوعها في أن تفعل ذلك تجاه الطفل.

رق قلبها، حدقت في قطعة البسكويت وفتحت يديها، سلّمتها لي بدون كلام وهي تؤشر للطفل بأن أعطيها إياه، استغربت من أمر تلك المرأة التي

قاتلت بشراسة من أجل تلك القطعة، لم ألُمْها، فقد كان الجوع شديداً أفقدها عقلها، لكنها تنازلت عنها لرافو.

أخذت منها القطعة، جلست وأزحت الخمار عن راس رافو مزقت غلاف البسكويت وبدأت أطعمه إياه وقد جفت شفتاه من الحرارة، وبدأ أنه يستمتع كثيراً بمضغ القطعة. أجلت النظر في أرجاء المكان وقد تصاعد التراب والغبار في الأجواء من تحليق الطائرات بالقرّب منا، وجدت المرأة من بعيد تسير ناكسة رأسها وهي تحدق في الناس الذين احتشدوا على المواد، وتكالبوا عليها، أخذ كلّ من استطاع أن يحيز شيئاً منها، ولبثَ الكثيرون فارغي الأيدي، لم يطاوعني قلبي وأنا أنظر إليها، حملت رافو واتجهت نحوها، كانت عيناها قد غارتا من التعب ووجهها الشاحب قد احمر من الحرارة، ناولتها قطعة من البسكويت فتحت عيناها يملؤها الفرح، ثم أومأت تشير إلى الطفل، إلا أنني طلبت منها أن تشاركنا فيها ولو قليلاً، تلعثم فمي ونطقت لأول مرّة أسألها عن اسمها فقالت لي: "نازدار".

سمعت لغطاً وجلبة في الخارج، كان هناك من يناديننا من خارج الخيّمة، خرجت مع نازدار وإذا بالسيّد عبد الستار مع مجموعة من الشبان، يحملون صناديق من المواد، يريدون أن يدخلوها إلى خيمتنا.

فتحنا لهم الباب، جلبوا لنا مدّفأة وفراشين وعدداً من الأواني، وقنينة غاز، وبراد ماء، وثلاث بطانيات، وفرش كبير يتسع للخيمة كلها، ثم وزعوا

علينا المواد الغذائية من البقوليات والحبوب. شكرناهم على تلك المساعدة، ودعونا لهم بالخير. بعد ذلك انصرفوا إلى الخيّمة المجاورة.

[٦]

أتذكّر أول مرة التقيت فيها بسرمد، كنت حينها طالبة في معهد المعلمين في مدينة الموصل، يبعد مسافة عن معهد التمريض الذي يدرس فيه سرمد. يومها كنت كالتائهة لا أعرف طريقي في تلك المدينة الكبيرة، كغريبٍ دخل في أحضان مدينة واسعة، وانفتحت عيناه على مناطق مترامية غير متناهية الأطراف، تختلف كثيراً عن مدينتنا الصغيرة سنجار، بما فيها من شوارع متفرعة ومكتظة بالمارة ومبانٍ عالية وساحات فسيحة، لم يكُن لي معارفي كثر، صديقتي الوحيدة (حنان) التي جاءت من سنجار أيضاً، لكنها تدرس في معهد التمريض، وتسكن معي في الغرفة ذاتها في القسم الداخلي وهي أيزيدية أيضاً، كنت شبه منعزلة لا أعرف سوى الطالبات اللاتي يدرسن معي، وللخروج من هذهِ القوقعة التي أنا فيها، دعتني صديقتي حنان ذات يوم لحضور حفل تخرجها في معهد التمريض.

رفضت الدعوة، بحجة أنني لا أعرف أحداً في تلكِ الحفلة غيرها، وسأكون كالغريبة في عيون الحاضرين، وأنا أخافُ تلك العيون الفاحصة التي تحدق بي بإمعان مدققة في معرفة كنهي. إلا أنها توسلت مراراً وبررت بأنها هي أيضاً طالبة من سنجار ولا تعرف أحداً سواها في هذه المدينة، وترغب في أن أرافقها في هذه المناسبة، طالما بقيّة الطلبة سيحضرون مع عائلاتهم إلا هي؛ فلم يحضر أحد من عائلتها من سنجار، ولم تجد سواي بديلاً لأهلها وكأنني

أختها. ترددت كثيراً، وضعتني في حيرة من اتخاذ القرار، كما أحزنني وضعها أن أدعها لوحدها لا رفيقة لها.

كنت سعيدة بوجودها لأنها من مدينتي، وتسكن معي في نفس الغرفة، وهي تعرف طبعي وأصلي، فقد كنت أتوجس الإقامة مع بنات قد لا يرغبن في مجالستي أو الأكل من الطعام الذي أعده بنفسي؛ لأنني أيزيدية. كانت حنان كسولة ومتقاعسة، تصحو من النوم متأخرة، لكنها هادئة الطبع قليلة الكلام، وبرغم أنه في بعض الأحيان كان ينشب شجار بيننا على شيء ما، يتعلق بغسل الأطباق أو إعداد الطعام بحسب الجدول الذي وضعناها لكلينا.

أفرحني تخرجها، لأنني سأتخلص منها، إلا أنني حزنت على أمري في أنني لم أزل في سنتي الأولى من الدراسة، وكنت قلقة، أفكر مع من سأمكث في السنة القادمة؟.

تركت الأمر بيد الله لما سيؤول إليه في السنة القادمة، في الوقت الحالي فكّرت في أن أستمتع بتلك الحفلة المقامة. أعددت نفسي- جيداً وارتديت أجمل فساتيني، أما حنان فقد لبست ثوب التخرج والعباءة، كانت تحملقُ فيَّ باندهاشٍ وأنا أرتب هندامي، قالت والغيرة تملؤها:

- لا يعجبني فستانك، لأنه يبرز مفاتنك على عكس ثيابي.

أجبت بعناد:

- لن أحضر المراسيم بدون هذا الثوب.

هزّت رأسها بتجهم، ثم ضحكت وقالت:

- أنت داهية... لا أستطيع مغالبتك.

ذهبنا سوية إلى معهدِ التمريض، كما توقعت كانت الأنظار مشدودة نحوي بوضوح، أحسست بتلك العيون التي تتابعنا من كلّ الجهات وتلتهمنا بنظراتهم، شعرت بالحرج قليلاً، إلا أنني استمرَرْتُ في السير وراء حنان، التي ما أن وصلنا إلى مكان الحفل حتّى بدأت تقبل صديقاتها وتشاطرهن فرحهن وتقهقه بصوتٍ عالٍ وضحكتها المجلجلة تصل كلّ أذن، خجلت من مرافقتي لها ولكنني عذرتها فاليوم هي مناسبتها وهي حرة لتعيش لحظتها وتتصرّف كما يحلو لها.

كان لها العديد من الصديقات، عرفتني بهن حنان واحدة تلوى الأخرى، كن يقتربن منها ومن ثم يبتعدن عنها، وكأنها تعاني نفس ما أعاني منها في تعامل الأصدقاء نحونا. من بين الحاضرين شدّ نظري شاب وسيم، كان واقفاً بالقرب منا، كان متأنقاً جداً، ذا وجهٍ مدّور، وعينين سوداوين متلألئتين، يبتسم ابتسامة خفية بشفاه مكتنزة، بعد لحظة اقترب من حنان، فعلمت بأنه من أصدقائها، تكلمت معه وأشارت نحوي فصوّب الشاب الوسيم نظرته تجاهي.

طلبت حنان مني أن أنضّم إليهما، حُبِسَ لساني ولم أجرؤ على النطق أمامه، سرتني وسامته وشعرت بالخجل من نظراته المتفحصة، بدا وكأنه لم يرَ فتاة

من قبل، استقرت عيناه في عينيّ فغضضت بصري، ضايقتني رؤيته، عرفتني به حنان: "هذا صديقي سرمد".

كان ذلك أول لقاء بيننا، وحتى اليوم أشكر حنان على الفرصة الجميلة التي قدمتها لي، بأن أقابل أرق شاب في العالم بنظري. لحظتها سكن الزمن وأطبق الصمت بيننا، نرنو إلى بعضنا دون كلام. قالت حنان: "سرمد من سنجار وهو يدرس معنا في معهد التمريض"، خفقَ قلبي له أكثر حينما لفظت اسم سنجار، ربما هو من طائفتنا. استمرَرْتُ بالسكوت، لم أشأ أن أسأله هل هو من ملتنا أم لا، كنت أخاف من أن أفقد ذلك الحلم، لزمت الصمت، عرفتني حنان بأنني طالبة في معهد المعلمين، انفرجت أساريره عندما أخبرته أيضاً أنني من سنجار، عندها ارتسمت على وجهه ابتسامة خفيفة، واستهل يستفسر عني، ومن أية عائلة أكون، لم أشأ أن أتكلم فقد شُلّ لساني عن البوح، بادرت حنان بالإجابة نيابة عني، وقد استغربت من نظراتي المشدودة نحوه لعلّها أدركت ما يدور بيننا، من خلال نظرات تملؤها الألغاز.

تساءلت هل حنان سمجة لا تملك قلباً ولا تدرك ما هو معنى الحب؟ وإلا لماذا لم ترتبط بهذا الشاب؟ لعلّه غريب عنا! كانت الأسئلة تدور في خلدي وأنا أصغي إلى حوارهما وهما يتحدثان عنّي كأنني في جلسة تحقيق. كانت حنان تتكلم بحرية وعفوية مطلقة كأنها تعرفه منذ أمد بعيد، وعندما علمَ باسم عائلتي شرع يسأل عن دراستي في المعهد، وفي أيّ قسم أدرس، فترد

عليه حنان بكل شيء، بدأ يجمع أكبر قدر من الأسئلة عن أصلي ونسبي ويحيطني بعينيه، وأنا لم أزل مطرقة بعيني متحاشية نظراته، مدّ يده يريد مصافحتي، توقفت لوهلة هزّتني حنان وقد غمزت بعينيها تطلب مني أن أرد عليه فوافقت، وصافحته. قال بحرارة: "تشرفت بمعرفتك"، بقيت كالصمّاء لم أرد عليه.

بعد تلك المقابلة التي لم أعرف ما كان يدور في خلد سرمد وقتها، ومن هو، وما طبيعته، وعندما عدنا من الحفلة؛ سألت حنان عنه كثيراً. فأخبرتني بكل التفاصيل، وأبلغتني بأنه طالب ذكي ومجتهد ومهذب جدّاً وخجول كثيراً، يحب المساعدة واحترام الآخرين، تلك الصفات أعجبتني، إضافة إلى هيأته ووسامته. إلا أنّ سؤالاً مهماً كان يحتل حيز مخيلتي وددت أن أكتشفه وهو من أيّ طبقة دينية هو، كنت خائفة من أن يكون الشاب من طبقة (الشيوخ) أو (البير)، لأنه لا يجوز التزاوج معهم، فأنا من العامة أو ما يسمونا المريد ولا يجوز لنا الزواج من طبقة الشيوخ ولا طبقة البير، فهذا النظام متعارف فيما بيننا، الشيخ يتزوج من الشيخ وكذلك البير يتزوج من البير وكذلك نحن العامة نتزوج فقط من العامة أمثالنا، وذلك لحفظ النسل لكل طبقة بمعزل عن الآخر ليبقى ابن الشيخ وابن البير نقياً من الأم والأب ومن نفس الطبقة. فيما بعد عندما انتهى الحفل وفي الشقة سألت حنان عن طبقة سرمد فأخبرتني بأنه من العامة مثلنا.

بدأ يحتل مخيلتي ويتغلغل في كياني، ليغزو قلبي شيئاً فشيئاً، بعد يومين تفاجأت عندما لمحت سرمد في معهدنا، شاهدته من بعيد دون أن يدري وهو يجول بنظره بحثاً عن شخصٍ ما، كنت أعرف أنه يبحث عنّي إلا أنه لم يكشف لي عن سبّب مجيئه إلى معهدنا بعد أن فاجأته، ومررت من أمامه خلسة. أوقفني يسألني عن شخص ما لا أعرفه، وادعى بأنه قد جاء لزيارة صديق، إلا أنه لم يكن صادقاً، كنت أعلم أنه يتقوّل مبرراً لوجوده.

دعاني إلى الجلوس في الكافتيريا لحين قدوم صديقه المزعوم، قبلت الدعوة ولكن لمدة قصيرة فقد كانت محاضرتي ستبدأ بعد ربع ساعة. جلسنا نحملق في بعضنا، وهو يتكلم متمتماً لا يعرف كيف يعبر عن ذاته؛ فقد كان خجولاً، وزعم أنه لأول مرّة يجلس مع فتاة ويحاورها.

لم يكن يعرف كيف يبادر بالكلام ويفاتحني بالموضوع، سلك بعض الطرق الملتوية ليعبر به عما يدور في خلده، إلا أنني استأذنت قبل أن يبوح بالحقيقة التي جاء من أجلها، وتركته وحيداً على طاولته حائراً بما كان يختلج في صدره.

لم يتوقف سرمد من زياراته، فقد بدأ يرتاد معهدنا كثيراً، بحجة أنه جاء لرؤية ذلك الصديق الذي لم أرَه البتة، ولم أعرف من يكون، فقد كنت أعلم أن ذلك الصديق الحميم لم يكن سواي أنا.

الآن يعتصر قلبي عذاب الانتظار والترقب، ألم الخوف والقلق من المصير المنتظر، الزمن يحمل في طياته خبايا مجهولة، يسوق أفكاري فيها إلى أماكن

نائية لا أعرف أولها ولا آخرها. تجول في ذهني توجسات عما يحدث لسرمد، أتفرس ذلك الأفق الفسيح ليل نهار، أترقب الطريق المُمتد إلى حيث يتواجد سرمد أو لا يتواجد فلا أعرف عنه شيئاً، هل مازال حياً؟ أم أنه قد قُتل على يد داعش؟ وإن كان باقياً فأين يمكث الآن وماذا يفعل؟ هل استطاع أن يحشر نفسه في عتمة بعيدة عن أنظارهم؟ وهل تمكن من أن يخبئ أصله وجذوره المهددة؟ لا مفر من أنهم سيذبحونه إذا ما اكتشفوا حقيقة دينه. هل هو قلق علينا مثلما أنا قلقة عليه؟ كيف يفكر بنا الآن؟ ألا يشعر بالخوف مما قد يحصل لنا؟ هل هو أيضاً يفكرُ فيما آلت إليه أوضاعنا؟ قد يتصّور بأننا أموات أو يتساءل إن كنا لم نزل أحياءً، وإن كان لم يزل فيه نفس فلماذا لم يرجع ويستفسر عنا؟ هل أنه في مكان لا يستطيع أن يخرج منه؟ ليتني أجد وسيلة لأتوصل فيها إلى معرفة أحواله؛ كيف ينام ويغمض عينيه الآن؟ وماذا يدور في خلده ويتصّوره عنا؟ لربما حاول أن يتحرى ويستفسر عنا، لربما استطاع الهروب والخروج من الموصل والذهاب مع النازحين ليبحث عنا، ولكن كم من الأيام وأنا مازلت في انتظاره، إن عاد هذه المرّة إليّ فحتماً سأمنعه عن السفر مرة ثانية، سأمنعهُ عن الخروج من البيت، سأبقيه أمام أنظاري لن أحتمل فقده مرة أخرى، سأعيش هذه الحياة القلقة الحرجة، سأمنحه كلّ حياتي وأعمل له ما يريد. ليرجع سالماً فحسب.

[٧]

صوت جلبة في الخارج ينقر أذنيّ، فجأة برزت نازدار أمامي تتنهد وتقول لي بأن شاحنة أخرى من اللاجئين قد وصَلت إلى المخيم. من دون انتظار أو تردد، ناولتها رافو وهرعت ناحية الساحة المقابلة لباب المخيم، لبثتُ واقفة هناك كالصنم أحدق في النازلين من الشاحنة، أحاول أن أميّز الوجوه لعلّي أجد سرمد بينهم. وجوه متعبة أهلكتها الحرب والتهمها الحزن، القهر يصبغُ وجوههم المكفهرة، يهبطون من الشاحنة العسكرية التي جلبتهم من الجبهات الأمامية من المعركة، لقد استطاعوا الهروب، إلا أنّ هناك مسحة من السعادة تزخر بها عيونهم لنجاتهم ووصولهم إلى منطقة آمنة، منهم من ترك عائلته خلفه ومنهم من فقد شخصاً عزيزاً عليه كما فقدته أنا.

يخرج الناس من المُخيمات ويتجمعون لاِستقبال القادمين، الكل يحدق فيهم كأنهم زائرون جاؤوا من كوكب آخر، من عالمٍ ثانٍ مليء بالمشاحنات والألغاز الخفية عما يحدث هناك، كوكب خطير لا ماء فيه ولا هواء، كما يبدو على وجوههم المتجهمة.

أتفرس وجوه القادمين لعلّي أجد مبتغاي، أدعو الله وأتمتم وصوتي يعلو أكثر؛ كلّما يترجل فرد من القافلة. أردد اسم سرمد مراراً وقد التصق اسمه بلساني ليل نهار. لم يكن بينهم، ولم أتعرف على أحد منهم، أحاول جاهدة أن أكتشف شخصاً ما قد أعرفه أو رأيته مع سرمد عساه يحمل عنه

أخباراً. أحاول عبثاً أن أجد شخصاً يصلني إلى بأخبار زوجي. أهزّ أكتافهم وأسألهم "هل رأيتم شخصاً يُدعّى سرمد؟ من أين جئتم؟ هل لمحتم رجلاً بعيون سود؟".

كالطرشان، فلا أحد منهم سمع بهذا الاسم، إلا واحداً منهم؛ قام بترديد الاسم على لسانه مراراً، كأنه يحاول أن يسترجع ذاكرته، ثم تنفس الصعداء، وانصرفَ متأسفاً.

كان عبد الستار مسؤول المخيم يقف جانباً يعاينني ويرى انفعالاتي اللامتناهية ومحاولاتي اليائسة في إيجاد شخص ما، له علاقة أو معرفة بزوجي سرمد. فيلاحظ عدم جدوى مُناجاتي. يقترب مني ويحملق فيّ بحزن، وجدت فيه رغبة لمساعدتي. وقّفَ برهة يفكر في شيء، استفسر:

- أين كان يعمل زوجك في الموصل؟

- في مستشفى الموصل العام.

- اصبري قليلاً... سوف أبحث بين أسماء الساكنين من اللاجئين عن طبيعة مهنتهم ووظيفتهم في الموصل، عسى أن أجد شخصاً ما كان يعمل في المستشفى، وربما نحصل منه على خبر أو معلومة عن زوجك سرمد.

كانت فكرة سديدة ومحاولة جيدة من قبله لمساعدتي، شكرته على تلك الخطوة ورجوت منه أن يستعجل في الأمر ويبحث عن مهنة كلّ شخص في هذا المخيم في سجلاته، فطلب مني التريث ليتسنى له الوقت الكافي لتفقد وظائف النازحين وأي شخص قد قدم من هناك.

بعد يومين سمعت عبد الستار خارج الخيّمة يناديني، خرجت إليه وإذا بامرأة فارعة القوام تقف بجانبه مبهورة الوجه، تحمل في ملامحها اغتراباً، تملك عينين منزويتين تنمان عن جفاء طويل، قال عبدالستار:

- هذه المرأة كانت مريضة في مستشفى الموصل، رقدت هناك لفترة، تزعم أنها رأت سرمد.

انفرجت أساريري فرحاً، طلبت منهما الدخول، كانت نازدار جالسة في الطرف الآخر من الخيّمة واضعة يديها تحت خديها تستمع إلى كلام المرأة وهي تحكي لنا عما رأته من سرمد أثناء ما كانت تعالج في المستشفى. كانت تمدُّ يديها في الاتجهات كلها عندما تتحدّث، وكأنها تحمل الكثير في جعبتها:

- كنت أعاني من مرض السكري حينما أودعوني المستشفى، بقيت هناك لأيام ورقدت في صالة المرضى يزورنا الأطباء بين حين وآخر يتابعون صحتنا ويفحصوننا بإمعان، ويكتبون لنا الأدوية اللازمة للعلاج، كذلك يزورنا الممرضون بغية المتابعة وأخذ العلاج، ويسهرون من أجل شفائنا. من بين هؤلاء كان هناك رجل يأتي ويتابع صحتي كان ذا طول فارع، لهُ عينان سوداوان، هادئ الطبع قليل الكلام.

تلك الأوصاف التي ترددها المرأة كانت كلها تلمح إلى طبيعة سرمد، يا عزيزي كم أنك جميل في عيون البشر، ها هم يتغزلون بوسامتك ويشيدون برقة قلبك.

واصلت المرأة كلامها:

- الرجل كان يدعى سرمد. ولد خلوق ومحبوب، يسهر على شفاء المرضى ويتابع مراحل تحسننا ويمدنا بالعلاج لحظة بلحظة ولايفارق مرضاه إلا عندما يطلب منه أحد الأطباء مرافقته في عملٍ ما. كان غالباً ما يناديننا بـ(أمّاه). كانت هناك امرأة عجوز راقدة بجانبي، أعياها المرض، مشلولة الحركة، أصابتها الجلطة، كانت على حافة الموت. لم يتركها سرمد للحظة، ظلَّ يزورها دائماً، يعطيها الحقن والأدوية، يعتني ويهتم بها كثيراً حتّى أنه كان يسهر الليل كله ويجلس بجانبها، لم أعرف سبّب اهتمام سرمد بتلك المرأة إلا بعد أن اكتشفت أنها لا يزورها أحد. كانت وحيدة، لديها ولد واحد وقد سافر إلى خارج البلد بغية الدراسة، وبقيت لوحدها في المنزل، وعندما مرضت جاءت لوحدها إلى المستشفى، لذلك رق لها قلب سرمد وعطف عليها، فتعامل معها كأنه ابنها حتّى لا تشعر بالإهمال والوحدة، وكأن الله قد حن على تلك المرأة وبعث لها ذلك الملاك، ليلبث بجوارها، بعد أن أدرك سرمد بحالها، لا يرافقها أحد، صار سرمد لها كالابن، يسهرُ عليها ويجلس بجانبها لساعات طويلة من أجل أن لا تحس بالوحدة وهي على مشارف الموت، لم أرَ شخصاً حنوناً ولطيفاً مثل سرمد، كنا نتأمل له بالخير وندعو الله أن يحميه لأنه طيب القلب.

أردفت المرأة:

- خرجت من المستشفى قبل يومين من دخول داعش إلى الموصل، وكانت تلك المرأة لا تزال راقدة هناك، لا أعلم ماذا حصل لها أو ماذا حدث لسرمد،

وقد سمعت عن قصتك من قبل عبد الستار قريبي، وحكى لي أنك تتقصين أخبار زوجك الذي يُدعى سرمد وكان يعمل ممرضاً في ذلك المستشفى، علمت بأنه يتحدّث عن ذلك الرجل الذي رأيته وعرفته هناك، لذلك وددتُ أن أراك وأساعدك، في الواقع رغبتُ أن أرى تلك المرأة سعيدة الحظ، التي ترتبط برجل مثل سرمد، أتمنى أن يعود لك سالماً ومعافى إن شاء الله.

ترك عبد الستار المكان وغادر إلى عمله، وبقيت تلك المرأة معنا لفترة طويلة، تتحدث عمّا جرى لهم وتسرد لنا فرارهم من الموصل يوم دخول داعش.

في الليل لم يراودني النوم، بقيت ساهرة أفكر فيما قالته المرأة، عن طيبة قلب سرمد، ومحاولته إنقاذ مرضاه، والمكوث عندهم يسهر على صحتهم. كان القمر ينير دجى الليل، في داخلي أنين موجع، أحدق في إكليل القمر وأنادي في داخلي على سرمد. وأفكّر وأتساءل كيف هو حال حبيبي الآن؟ أين يمكث الآن؟ تحت أيّ جدار بارد يرقد؟ ماذا يأكل؟ وكيف ينام؟ هل ينام على أرض باردة؟ أم فوق فراش؟ هل هو في مكان آمن؟ أم أنه بيد داعش؟ لم أتحمل تلك الأفكار المأساوية ولم أرغب في أن أفكر بأنه يُعذب، قلبي لا يطاوعني، فذلك كان يهيج روحي ويعذبني بشدة، تمنيت أن أتعذب مكانه من أن تصدرَ عنه آهة أو يجرح مكان من جسده، أردد في نفسي:

- هل ما زالت أنفاسك الدافئة تستفيض دفئاً حاراً؟ هل عيناك الآن مغمضتان تحلم في الوصول إلينا؟ تحلمُ في أن أحضنك بقوة وأشدك بين

أضلعي؟ لا لن أدعك تذهب من يدي مرة أخرى لتضيع مرة ثانية، مجـرد أن تعود لي سالماً هذه المرة وأنا سأتكفل بإخفائك عن العـالم أجمعـه. مـن كان يظن بأن الأقدار تخفي لنا هذه الظروف المتهالكة. دعـوت ربي مـراراً، أرجـو منه أن يحفظ عبده الوفي الطيب القلب الذي لـم يـؤذِ في حياتـه نفسـاً أبـداً وإنما راعى وداری نفوس عبادك. بقيتُ على هذا الوضع إلى أن تملكني النـوم قاعدة دون أن أدري بحالي.

[٨]

سمعت همهمة تصدر عن مجموعة من النساء يتحدّثن عن المفقودين، كنت أهيئ الحليب لرافو، أعطيتُه الحليب وخرجت على الفور من الخيّمة، رأيت حشداً من الناس يتجه إلى وسط الساحة الواقعة أمام باب المخيم، حملت رافو وخطوت خارجة لأتفقد ما يدور، لاحظت (مريم) وهي إحدى فتيات العائلة التي تسكن بجوار خيمتنا تقول:

- جاءت إلى المخيم منظمة إنسانية، يقومون بتسجيل الأشخاص المفقودين والذين لا يعرفون أخبارهم، إنهم الآن في إدارة المخيم.

شكرتها وتوجهت مباشرة مع الناس، إنها فرصة جيدة لا تفقد من خلال المنظمة أخبار سرمد، طالما أنها منظمة عالمية، لربما يستطيعون عمل شيء كالوصول إلى جمع الأدلة وجلب الأخبار عن المفقودين في المدينة، مع أنّ الأمر كان في غاية الصعوبة، فلا يمكن التعامل مع هؤلاء الدواعش.

حين وصلت إلى الساحة اندهشت وتسمرت في مكاني، شاهدت جمهوراً غفيراً من النازحيين، اصطفوا في طابور طويل يصل إلى مقدمة باب الإدراة حيث يجلسُ هناك موظفو المنظمة يسجلون أسماء المفقودين، لم أتوقع أن أرى هذا الكم الهائل من الأهالي الذين فقدوا ذويهم، كنت أظن نفسي من القلائِل الذين فقدوا عزيزاً في هذه الظروف المشؤومة، إلا أنني شاهدت الكثير منهم، هناك الكثير ممن فقدوا أبناءَهم أو أزواجهم وانقطعَ الاتصال

بهم، يرغبون في أن يعرفوا مصيرهم لعلّهم وقعوا بيد داعش أو فروا إلى مكان آخر.

دخلت بين الصفوف، وانتظرت إلى أن يحين دوري، كان هناك رجلان وامرأة جالسين في غرفةِ الإدارة، أحدهم يتحدّث والآخر يكتب والمرأة تستنسخ الهوايات. وعندما وصلَ الدور إليّ دخلت الغرفة، سألني الرجل الذي كان يرتدي سترة حمراء ويحمل شارة المنظمة، عن اسم الشخص المفقود ببرود واللامبالاة، كأن الأمر أصبح عادياً لديهم. أعطيتُه اسم سرمد بالكامل وأخبرته عن مكان عمله وأين كان متواجداً آخر مرة، طلبوا نسخة من هويته، أبلغتهم بأنه قد حملها معه عندما سافر إلى الموصل، سألوني عدة أسئلة أخرى عن أقاربي أو أشخاص قد أعرفهم في الموصل قد يساعدونهم للعثور عليه. ثمّ تأكدوا مني إن كنت أعلم عنه شيئاً كأن يكون حياً أم لا. ذلك السؤال أدمى قلبي، لم أعرف بماذا أردُ عليهم فأنا أجهل ماذا جرى له، اغرورقت عيناي بالدموع، قلت هم:

-كل شخص يملك عزيزاً له، وزوجي هو أغلى ما أملكه في هذا العالم، فهو كلّ شيء لدي. آخر مرة شوهد فيها قيلَ إنه كان يعملُ في المستشفى، أما بعد ذلك فلا أعرف عنه شيئاً ولا أعرف عن مصيره شيئاً. إلا أنه لم يبلغني أحد أو يصلني أيّ نبأ عن وفاته.

سألني الرجل سؤالاً آخر، زرعَ الشك في مخيلتي وزاد من شجوني وخوفي:

-إن كان حياً كما تظنين... فلماذا لم يتصل بك منذ تلك الوقت ويبلغك عن مكان وجوده وعن حاله؟

توقف الدم في عروقي جعلني أحير في أمري، فقد كان على حق، إن كان حياً فلماذا لم يحاول ويتصل بي ولو لمرة؟ هل يقصد بأنه قد يكون مقتولاً ولم ينجُ من بطش هؤلاء الناس، مع أن أسلوب استفساره كان قاسياً إلا أنه كان يحمل مصداقية في كلامه. دار في خلدي ذلك الأمر سابقاً إلا أنني كنت أنفضه عن أفكاري، كنت أخشى الدخول في هذا الموضوع، كنت أتكهن أنهم قد منعوا الناس من حمل الهاتف والاتصال بخارج المدينة كما كانوا يدعون. ثمّ تنهد الرجل مستوضحاً كأنه يبغي إخراجي من الدوامة التي وقعت فيها قائلاً:

-ربما قد يكون الآن بيد داعش، محبوساً في مكان ما وقد أخذوا منه جهاز الاتصال، ربما... أو...

ثم سكت عن إتمام كلامه وهو يرنو إلى عينيّ الغارقتين بالدموع كأنه يحاول إفهامي بأن ننظر إلى الأمر بواقعية أكثر وأن نتكلم بجدية ونبعد الأوهام والظنون عن مخيلتنا، ثم تمتم ببضع كلمات محاولاً إنكار ما قاله والتراجع عنه:

-آسف لم أقصد ذلك.. إنني أعني بأن يكون محجوزاً لدى داعش.

أدرك الرجل الهيستريا التي أحاطتني لحظتها وعدم قدرتي على التعبير، فأراد أن ينتشلني من تلك الدوامة التي اصطنعها وغرزها في عقلي وملأني قلقاً، فأردف:

-على كلّ حال سوف نتفقد الأمر بدورنا ونعمل ما أمكننا لنعرف عنه شيئاً، مع إن الأمر صعب فهولاء الدواعش لا يمكن التعامل معهم. إلا أنه هناك من الطيبين الذين لا يزالون موجودين في المدينة ويحاولون مساعدتنا.. ونحن نبغي جمع المعلومات عن المفقودين ومعرفة حصيلتهم... إن شاء الله سيكون في أمان.

نادى على الشخص التالي ليدخل. حملت جسدي بصعوبة، كانت قدماي ترتجفان لا تقويان على الحركة. لم أستطع أن أخطو بعيداً، تعثرت في مكاني، خرجت من عندهم وعيناي قد اغرورقتا بالدموع وامتلأ قلبي روعاً. لم أكن أعرف إلى أين تفضي بي خطواتي.

دخلت من بعدي نازدار إلى المنظمة لتخبرهم عن أختها المفقودة بيد داعش، رأتني وأنا مغمورة في الحزن. هزّت رأسها أسفاً، كانت فاجعتها لا تقل عن مأساتي بل أشد مني، فلا تعرف ما مصير أختها هل لا تزال على قيد الحياة؟ أم لا؟ لربما هي الآن سبية بين أيديهم.

كنت أدعو أن يكون سرمد حياً، أفكر به ملياً، يا ترى تحت أيّ جدار يرقد الآن؟ هل هو حي؟ ماهو حاله الآن؟ أحسست بلهفة نحوه، روحه تتغلغل إلى جسدي وتملأني حناناً ودفئاً، يحضنني بشدة ويعانقني بلهفة

ويهمس في أذني كلمة (أحبّك)، تلك الكلمة التي ترنُ في ذاكرتي كأنها صدى يسترجع أيامنا الخوالي. أحسست به يجلس بجانبي، أنه ليس ببعيد عني، أعلم أن باله لدينا، يشغله ما قد جرى لنا. كأن روحه تحوم حولي لهفة، فيدركني الشوق للقياه، كيف لي أن أحلّق إليك وأذهب من أجلك إلى الموصل للبحث عنك؟ لولا رافو لسلكت ذلك الدرب الذي يفضي إليك عدواً وأفعل كلّ ما يمكنني أن أفعله بغية إيجادك، كم هي طويلة تلك المسافات التي تفصلنا وتلك الحواجز المُؤطرة بالموت والوحشية. سكون هادئ يعمّ الجو لا أسمع سوى صوت نباح الكلاب من بعيد، صمت ثقيل يسكن العالم. ماذا يكون لو أنني أملك الآن جناحين وأحلّق بعيداً نحوك أحبو إلى جوارك وأحضنك بشدة حينها لن أتركك للأبد. يا ترى إلى أين ارتمى بك الدهر يا ليتني أعرف بحالك ليطمئن قلبي ويرتاح من قلقه، تلك الأمنيات تسحقها الحروب أينما حلت. اقتضبَ قلبي بعد أن أحسست بابتعاد رَهيف روح سرمد بعيداً عنّي ليتلاشى طيفه ويجتاز مسافات شاسعة لا أعلم إلى أين توجه هل إلى ناحية السماء؟ أم مازال في ذاك الجسد على الارض؟ دعوت ربي كثيراً أن يكون في عونه وناديت على جميع الأنبياء من أولهم إلى آخرهم أن يحموه من أيّ شر ومكروه.

ليلتها جلست وحيدة بعد أن نام رافو في أحضاني وفي الجانب الآخر من الخيّمة رقدت نازدار وقد تلفعت بعدة بطانيات فقد كانت لا تستطيع

مقاومة البرد الشديد، كنت أعلم أنها تفكّر بأختها كثيراً وتدعو أن تعود لها سالمة.

حكت لي نازدار سابقاً كيف أنها لم يحالفها الحظ ولم تتزوج إلى الحين، كانت نازدار الفتاة الأولى لوالديها، ومن ثم تأتي أختها الصغيرة ميان، لم تستمر في الدراسة بعد المرحلة السادسة فقد أرغمتها والدتها على ترك المدرسة والبقاء في المنزل، فبقيت في المنزل تدير شؤون البيت، تقدم لها شاب وهي في الخامسة والعشرين من عمرها وخطبها من والدها، إلا أن ذلك الشاب قبل أن يتزوجها هاجر إلى أوربا مُدّعياً أنه سيقوم بسحبِها والزواج منها بعد أن يحصل على الإقامة هناك، إلا أن الشاب غدرَ بها وخانها بعد أن بقيت خمس سنوات في انتظاره، وفي النهاية نال الإقامة، إلا أنه لم يرد عليها فيما بعد وتزوج من فتاة ألمانية بغية الحصول على الجنسية وأنجب منها صبياً وترك نازدار لحالها ولم يعد لها، ذلك الأمر أغاظ الوالد، وتوعد بالانتقام من الشاب الذي خان وعده وأبقى الفتاة كلّ تلك السنوات في ذمته دون أن يتم الزواج منها، بقيت الفتاة ولم يتقدم لها أيّ شاب فيما بعد.

سألتها إن كان هناك شخص ما تقدم لها فيما بعد، فردت بأنه كان هناك شاب يدعى فاضل تاجر أقمشة يأتي من الموصل ويبيع أغراضه في سنجار، يحوم بمركبته المحملة بالأقمشة المستوردة من سوريا ويتجول بين أزقة المنازل، هناك تعرف فاضل على نازدار عندما كانت تشتري منه الأقمشة مع

والدتها، كان نحيفاً يبتسم في الغالب، ينحدر من عائلة فقيرة في الموصل مقطوع الجذور. بعد فترة من رؤيته لنازدار وقعَ في حبِّها وبدأ يرتاد محلتهم كثيراً، وقد أحست نازدار بتلك النظرات الغريبة، تخيلت بأن فاضل يتملق معها مثلما يفعل مع معظم النساء من زبائنه بذلك الأسلوب بغية إرغامهن على الشراء منه، إلا أنها فيما بعد أدركت بأن ذلك الشاب قد وقع في غرامها وأنّ نظراته ليست خالية من التعابير، ازدادت تلك الإيماءات بعد أن بدأ فاضل يرتادُ الزقاق تقريباً كلّ يوم، إلا أنّ نازدار لم تكن تولي له أيّ أهمية، لكنها تفاجئت ذات يوم بأن فاتح فاضل والدتها بأنه يبغي أن يتقدم إليها، فردت عليه الأم وغضبت منه وطلبت منه ألا يزور محلتهم وإلا فسوف تخبر والد نازدار بذلك، كان الرجل صادقاً في النية ولم يعرف كيف السبيل إلى الزواج من فتاة أيزيدية، لم يصبر ولم يتحمل السكوت وقرّر أن يتقدم لها ويأتي إلى منزلهم ويفاتح والدها، وليكن ما يكن، ذهب إلى منزلهم وتكلم مع والدها، لم يغضب الوالد ولم تبدر منه أية ردة فعل شدّيدة وإنما تعامل مع الأمر ببرود ونصح الرجل بأن لا طريق للالتقاء بينهما وأنه من الأفضل له أن ينسى الأمر بتاتاً ووضح له الأسباب ونصحه بالزواج من ملته عن الولوج في دوامة الزواج من واحدة تختلف عنه فكيف سيتصرّف أبناؤهما ويقرّرون عندما يرون والديهما منفصلين دينياً، لم يكن للرجل سوى أن ينصاع لواقع الأمر، ويعود مخذولاً، ويترك سنجار إلى الأبد.

[٩]

ذات صباح تناهى إلى مسماعي لغط وشوشرة تأتي من الخيّمة المجاورة، نهضت وخرجت أتفقد الأمر، كانت عائلة (أبو قاسم) التي تسكن في الخيمة المجاورة تودعُ ابنهم الذي أعد نفسه للهجرة إلى خارج البلد إلى أوربا مثل أغلب الشباب، كانت الأم تحضن ولدها بشدة وتبكي بغزارة في غبش الصباح والأب يمسح دموعه الكثيفة الصامتة التي لم يكن لها من بد على ولده الذي سيتركه ويرحل مبتعداً وقد لا يراه مرة ثانية، لم يطاوعهم في أن يفارقوا حضنه، أن يتركوه ليمضي فقد كانت المركبة في انتظاره، أما الولد فقد كان ظاهراً عليه مقدار تعلقه بوالدته ولم يعرف كيف يهدئ من روعها وينسل من بين حضنها. بدؤوا يتلون الصلوات ويدعون له بالسلامة في رحلته المليئة بالمخاطر، كلّ ذلك حدث وأنا أقفُ بجانب باب خيمتي أشد النظر نحو مشهد الفراق وأطرق السمع إلى أنينهم، ألا يعلمون أن الفراق صعب، يهلك كيان البشر ويخلع قلبه من جسدِه، يسير الشخص إلى مصير مجهول، ألا يعزُّ عليه مفارقة عائلته وما سيعانونه بعد غيابه، يتركهم في مصيبتهم التي هم فيها، يرحل فتتضاعف آلامهم على ما هم عليه. إلا أنّ الوضع الذي آل إليه البلد بدأ لا يطاق وكثير من الناس وجد أن هجرته البلد أفضل من البقاء تحت هذه الأفكار والمعتقدات السوداوية. ومن جهة أخرى فإن الكثير من دول العالم باتت مستعدّة لاستقبال اللاجئين،

وخاصة الاقليات من الاديان الاخرى لذلك وجد الشباب أنها فرصة حسنة للتخلص من هذه المحنة المؤلمة.

بعد عناق شديد وقد وهنت قواهم، لم يعرف الولد كيف ينفلت من أحضان والدته، جرّه بعض الأصدقاء من بين يديها ودسوه في المركبة وانطلقوا بعيداً عنهم وتوسعت الهوة بينهم. اقتربتُ من أم قاسم واحتضنتها وطلبتُ منها الصبر. في تلك الأثناء خرجت نازدار تسأل عما جرى فأخبرتها بالأمر، وكأنما هي من فقدت عزيزاً عليها بدأت تذرف دموعاً وتبكي مع أم قاسم، أما أنا فقد بقيت واجِمة أحدق فيهما. تذكّرت قصصاً كثيرة سمعتها من الناس يتكلمون عن غرقى في البحر وموت عدد كثير من اللاجئين أثناء محاولتهم العبور إلى اليونان، منهم من طفت جثته فوق زبد البحر وقد أكلتها الأسماك بعد أن غرقت زوارقهم وابتلعهم البحر، الخوف من ذلك الأمر كان بادياً على وجه أبو قاسم وزوجته وهما يفكران بما سيؤول إليه مصير ابنهم، هل سيتمكن ويجتاز ذلك الموج الهائج بسلام؟ بقينا يومها بجانب أم قاسم نشد من أزرها ونتأمل لولدها بالسلام، نواسيها ونوضح لها بأنه عندما يجتاز البحر سيضمن مستقبله فيما بعد وسيجد لنفسه مكاناً أفضل للعيش، يحيا فيه بأحسن حال ويكون بأمان ويملأ حياته ازدهاراً عمّا هي عليه في هذا البلد المليء بالنزاعات.

عرضت فكرة الهجرة إلى الخارج على سرمد فيما سبق، حينه كان قد عاد لتوّه من المستشفى وكان جالساً في حديقتنا الصغيرة يحدقُ في القمر وطفق

يفكّر في الأمر ملياً، بعد هنيهة التفتَ إليّ بابتسامته الساحرة وهو يؤشر بيده ناحية القمر قائلاً:

-هذا القمر الذي نراه الآن في سمائنا هو نفس القمر الذي يتواجد هناك في تلك البلاد البعيدة، ما الداعي للذهاب إلى بلد غريب ونترك عائلاتنا وأصدقاءنا الذين لا نقدر على فراقهم.

لم أعرف كيف أرد عليه، ثمّ ورد في ذهنه أمر آخر فالتفت إليّ قائلاً:

-وكما الآن لدي وظيفة وعمل في المستشفى هو رزق حياتي إن ذهبت وخرجت سأفقد وظيفتي هذه للأبد، وهناك يجب أن أعيش على المساعدات التي تقدمها لي الدولة دون أن يكون لي دور في الحياة. وسأعيش حياة رتيبة باردة إلى الأبد لا دور لي فيها.

ماذا لو اقتنع سرمد بفكرتي حينذاك ورحلنا إلى الخارج وهجرنا هذا البلد، ما كان ليحدث ما وقع لنا ولما فقدت سرمد الآن. لربما إن الفرص التي تُسنح للبشر قد لا تعاد مرّة أخرى وستضيع منه للأبد.

التفتُ إلى أم قاسم وحكيت لها هذه الحكاية التي دارت حينها بيني وبين سرمد، ولم يطع كلامي وقد ضاع الآن في الموصل بيد داعش، كان من المستحسن لنا أن نسافر حينها، أضيع بلداً ولا أضيع زوجي فهو كلّ شيء بالنسبة لي، سندي وعوني وكيف الآن وقد بقيت وحيدة. كنت سأتحمل غربة الابتعاد عن عائلتي وأقربائي إلا أنني لا أتحمل غربة سرمد، إنّه أقسى من كلّ شيء، كنت سأتحمل ذلك البرد القارس والثلوج التي تنهمر بغزارة

على تلك البلاد البيضاء فذلك أهون من أن أفقد حرارة ودفء حضن سرمد إلى الأبد. بعض الأمور التي تطفو إلى مخيلة الإنسان مُسبقاً قد تساعده في النجاة والخلاص من مأزق أخطر قد يرتاده فيما بعد، أخبرت أم قاسم أنه من الأفضل لولدها الرحيل والعيش هناك من أن يواجه مصيراً مجهولاً كمصير سرمد فيما بعد، زوجي الذي لا أعلم ماذا حدث له وإلى أين آل وضعه، كنت أفضّل أن يجتاز سرمد تلك البحار الهائجة من أن يضيع هكذا بيد داعش، وأطمئن على الأقل بأن أعرف إلى أين كان يذهب.

كل تلك الكلمات والمحاولات من أجل مواساتها لم تهدئ من روعها وتطفي النار التي توقدت في صدرها لتقول لنا بأنها منذ أن رأى ولده هذه الدنيا لم يفارقها لوهلة ويرحل إلى مكان آخر وأنه ليصعب عليها الآن فراقه الكبير إلى وجهة بعيدة جداً، كما يصعب عليّ فراق سرمد الذي أحرق أحشائي وأحالها رماداً، لم أعد أصبر أكثر من ذلك.

[١٠]

كنت أشعر بالوحدة حيال ما أنا عليه، فلا أحد يساعدني ليتقصى لي خبر سرمد، ولا أنا بقادرة كامرأة على الولوج والنقاش مع الرجال ولا أعرف إلى أين أدير وجهي وأرتحل لأبحث عنه، امرأة وحيدة لا حول ولا قوة لها، أود لو أن أتمسك بخيط يفضي بي إلى معرفة مكان سرمد في الموصل. على الرغم من تدهور الأوضاع في الموصل وهروب معظم سكانها إلا أن هناك الكثير من أهاليها مازالوا منزوين فيها لم يبرحوها، ممن لم يستطيعوا الفرار أو ممن لم يجدوا مكاناً غير المنزل يأوون إليه، وهؤلاء النازحون المتواجدون في المخيمات الكثير منهم مايزال يملك أقاربَ له حوصر في المدينة ولم يستطِع الخروج. هؤلاء الناس يمكنهم مساعدتي للاتصال بأقرانهم في الموصل للتفقد والبحث عن سرمد، ولكنني وحيدة لا أعرف أحداً ممن لديه معارف هناك. أعلم إن هناك الكثير من العائلات التي فقدت أحد أفرادها في هذه المعمعة وأنهم يحاولون جاهدين كشف مصيرهم والتحري عنهم بشتى الطرق إلا أنّني لا أدري ماذا أعمل وأسأل من ليتمكن من معاونتي في هذا الأمر. ضاق صدري واعتلاني الغم فلا حول لي. ويستوجب عليّ أن أفعل شيئاً وأتحرك ويجب ألّا أمكث مكتوفة الأيدي وأرضخ وأستسلم للواقع.

ذات مرة قال لي سرمد بأنه من الجيد أن يكون لنا معارف كثيرة وعلاقات واسِعة مع أناس مختلفين فربما سنحتاج إليهم ذات يوم ونستعين

بهم في أمر ما. وقد استطاع أن يحقق ذلك بطيبة قلبه ومعاشرته السهلة بأن يكون لنفسه عدداً هائلاً من الأصدقاء ويكسب ودهم. كان يحاول أن يكون بسيطاً عند الجميع ويغمرهم بالحب والإلفة فيميلون إليه، لقد فعلَ ذلك وأعلم أنه قد نجح فيه وأنه كان يمتلك قاعدة واسعة من المعارف والزملاء في الموصل ولكن المشكلة في أنّ سرمد هو الوحيد الذي يعرف هؤلاء الناس أما أنا وإن ذكر أسماء البعض منهم إلا أنني لم أرَهم وأجهل مكان سكناهم في تلك المدينة لأستعين بهم الآن في البحث عن سرمد. لربما كان ينفعني لو أعطاني أسماءهم وأرقام هؤلاء الناس لكنت الآن أسألهم فيزاورونني في البحث عنه، كان ذلك أفضل من الجلوس ساكتة أنتظر مصيراً غير معلوم لزوجي، ولكن من كان يفطن أن يحدث كلّ هذا لنا.

لم أقف مكتوفة اليدين، ذهبت إلى عبد الستار مسؤول المخيم وسألته من جديد عن تلك المنظمة التي سجلت فيها سابقاً اسم سرمد كأحد المفقودين إن كانت قد وردت منهم أيّ أنباء جديدة. فأردفَ بصراحة:

-لم أرَهم مرة ثانية لربما أنهم جاؤوا من أجل تدوين أسماء المفقودين لتكون لديهم إحصائية عن الأفعال الشنيعة التي ألحقها داعش بالناس ولا أظن بأنّهم سوف يتابعون ويبحثون عن كلّ هذا الكم الهائل من المفقودين. كما أنّه من الصعب التفاوض والنقاش مع داعش في أيّ شيءٍ كان، ليس فقط عن مصير هؤلاء المفقودين.

استشطت غضباً فقد توقعت منهم خلاف ذلك، وربطت آمالي بهم في أن يفعلوا شيئاً. أطرق عبد الستار ملياً، وقد آلمته محاولاتي العديدة من أجل سرمد، قال لي بعد أن وردَ في ذهنه اسم شخص:

-سوف أعرفك إلى شخص ما يدعى (دلشاد عزيز)، إنه صحفي، يأتي غالباً إلى هنا ويسأل عن حال الناس ويكتب تقارير عن أوضاعهم وينشرها في صحيفة خاصة، حكى لي أنه ذهب مراراً إلى الجبهات الأمامية للقوات الأمنية وحضر العديد من المعارك الدائرة ضد داعش، ولأن طبيعة عمله هو أن يتكفل بجمع الأخبار في الموصل فقد حاول مراراً أن ينسق مع أناس يعرفهم في داخل الموصل؛ لينقلوا له أخبار المدينة وما يجري هناك من اقتتال وظروف المعيشة. وهؤلاء الناس يستطيعون أن يمدونه بأيّ شيء يريد أن يتقصاه، عمّا يدور من أخبار ومعارك وحال الناس داخل الموصل. أظن بإمكانه أن يساعدك، يستعين بهؤلاء الناس وينشد منهم أن يبحثوا عن زوجك لربما أمكنهم أن يتوصلوا إلى شيء ما ويعرفوا عنه خبراً.

انفرجت أسارير وجهي وانشرح صدري، وأخيراً عثرت على بارقة أمل. سألته عن أيّ وقت يأتي فيه هذا الرجل إلى هنا، فأخبرني بأنه يأتي في أيام غير محددة ولكن إذا جاء هذه المرة فسوف يعلمني به ويستدعيني أتكلم معه. أخذت بيده أصافحه بشدة وكأنني لم أمسك بيد رجل هكذا من قبل. وحركته مراراً أشكره على اهتمامه بالموضوع، أخبرته بأنني سأمر عليه بين حين وآخر لأستذكره وأسأله عن قدوم هذا الرجل، فأعلم أنه كثير المشاغل

ولديه الكثير مع المشكلات مع هؤلاء الناس المتواجدين في المخيم ويكابد جاهداً أن يساعدهم ويوفر لهم ما ينقصهم.

بدأت ألازم طريق الإدارة ويوماً بعد يوم كنت أذهب إلى عبد الستار وأسأله عن الرجل إن قدم إلى المخيم أم لا، وكان كلّ مرّة يهزّ رأسه بالنفي، كان يحدوني الأمل بأن ذلك الرجل سوف يستطيع أن يساعدني ويفعل من أجلي شيئاً. كان ذلك أفضل طريقة لأصل من خلالها إلى داخل الموصل وتقفي أثر ومكان سرمد ومصيره إن كان على قيّد الحياة أم!!

مرت أيام عديدة دون أن يبرز ذلك الشخص، وقد ألِفَ عبد الستار على حضوري أمامه كلّ مرّة أسأله عن دلشاد فيحرك رأسه بالنفي ومن ثم يعيد رأسه إلى أوراقه ويستمر في مشاغله.

بعد مرور أكثر من أسبوعين، وذات يوم كنت أسير بمسافة بعيدة عن غرفة عبد الستار عندما لاحظته يجول بعينه يبحث عنّي وكان هناك رجل ما يقف بجانبه، التفتُ إليهما وتوجهت ناحيتهما بعجل، عرفني عبد الستار على الرجل الصحفي، كانت في يده حزمة من الأوراق، رحب بي وعلى وجهه ارتسمت ابتسامة خفيفة، كان أنيقاً يلبس سترة ذات جيوب عديدة إلا أن حذائه كان قد تلطخ بالوحل ولم يكن يبالي، بادرَ هو بالكلام قائلاً:

-سمعت من عبد الستار عن قصتك ومحاولتك للقاء بي من أجل زوجك.

هززت رأسي مؤيدة، يبدو إن عبد الستار قد قصَ عليه كلّ شيء، رأى في ملامحي حزناً مستديماً قد طبع على سحنتي. جلسنا في غرفة إدارة المخيم

وطلب مني دلشاد أن أحكي ما أعرفه عن زوجي وأين كان متواجداً آخر مرة وأين كان يعمل. أخبرته عن سرمد ووصفت له شكله وملامحه وأعطيته اسمه الثلاثي وما كان يحتاجه، سجله كلها لديه وبدا عليه أنه يأخذ الأمر على محمل الجدية فقد كان مندفعاً وفي نيته أن يساعدني عندما خاطبني وقال وكأنّه يريد أن يهدئ من روعي ويمدني بشيء من الصبر في أن أعرف خبراً قريباً عن سرمد:

-سوف أعمل ما في وسعي بغية معرفة أخبار رجلك، لدي أصدقاء جيدين في الموصل يستطيعون أن يساعدوني سأطلب منهم أن يتحروا ويسألوا عن سرمد، وعد مني سأبذل قصار جهدي من أجل ذلك.

أبهجني إصراره ذلك، شكرته كثيراً وأعلمته بأنني سأنتظر منه أن يتصل بعبد الستار وينقل لي أيّ نبأ عن زوجي؛ وسأكون له شاكرة.

كأنّ ماءً بارداً قد نزل على قلبي. وأخيراً عثرت على من يصغي إليّ ويعاونني في إيجاد حبيبي.

[١١]

ذات يوم دار في خلد نازدار سؤال غريب، سألتني خلسة أن كان هناك من شاب قد وقع في حبي عندما كنت شابة غير زوجي سرمد، مع أنني لم أعشق في حياتي شخصاً آخر سوى سرمد الذي ملأ عينيَّ وقلبي، لم أنظر إلى شاب آخر غيره. إلا أني أتذكّر شاباً كان يحوم حولي، ويحاول الاقتراب مني والتعرف علي.

كان ذلك في الأيام الأوائل من الدراسة في المعهد، قبل أن أتعرف على سرمد وأذهب إلى تلك الحفلة. أتذكّر أني كنت أرى شاباً أشقر كان يدور حولي كثيراً ويترقبني من بعيد وأحس بنظراته وهو يختلسها تجاهي من الزوايا القريبة مني، يجلس في أحد الأركان ويرنو إليّ بشغف وعيناه لا تفارقاني. في البدء كنت أتوجس الخوف من نظراته، لم أعرف لماذا يحدق بي هكذا، فيما بعد رأيته بكثرة في الأيام التالية يقف مستطلعاً، علمت فيما بعد أنه أيضاً طالب في المعهد ولكنه يدرس في قسم الاجتماعيات، كان نحيفاً وأنيقاً بملبسه؛ لربما كان من عائلة مرموقة، كنت أحس فيه التردد والشغف لملاقاتي ومفاتحتي بغية التعرف عليّ، لم أشأ أن أدنو منه وأتعرف عليه ومن المستحسن أن أهمله وأن لا أعيره أيّ اهتمام فلا يجمعني به شيء طالما ديني يختلف عن دينه. لكن الشاب ما انفك يلاحقني من بعيد وفي يده الكتب ويمر بجانبي ويلقي النظر ويغمز لي بعينه، كنت أتساءل هل هو حقّاً قد وقع

في حبي؟ أم أنه يتحرش بي لا أكثر كأي شاب متهور؟ لم أعرف مغزاه تماماً إلا أنني كنت أراه مراراً وهو يؤشر ناحيتي عندما يتحدّث مع أصدقائه، ذات يوم كنت جالسة مع مجموعة من الطالبات في المقهى فمر ذلك الشاب من أمامنا حدّق نحوي بنظره وجلس على مقعد ليس ببعيد عنا، وصار يستغل الفرص ويسترق نحوي نظراته وفي يديِه كتاب كأنه يقرأ، عندها استفسرت من سارة- وهي إحدى الطالبات التي تدرس في قسمِ الاجتماعيات- وكانت تجلس صدفة بجانبي عن ذلك الشاب، إن كانت تعرفه، فتوسعت حدقتاها باستغراب، كأنها أدركت سبب استفساري فذكرت لي بأن ذلك الشاب يدعى(عاصم) وأنه طالب محترم ومؤدب ومن أحد أذكياء طلاب قسمها وأنه ابن عائلة كبيرة ووالده تاجر معروف.

لم أهتم بما كان يملكه الولد أو هل كان غنياً أم فقيراً، فذلك لايعني لي شيئاً ولكن ما كنت أريد التوصل إليه هو ما يضمره هذا الشاب من نية تجاهي، ما استنفد منها أنها امتدحته ووصفته بالطالب المؤدب والمحترم، فاطمأن قلبي بأن ذلك الشاب لربما لا يحملُ تجاهي شراً أو نية سيئة وأنه لربما قد وقع حقاً في مكيدة الغرام ووقع في حبي.

رقَ له قلبي وتأسفت له، يا لسوء حظه إذا لم يجد فتاة غيري من فتيات المعهد كلهن ليقع في غرامها. لماذا وقع اختياره علي؟ لقد فتح لنفسه باباً مؤلماً، ماذا لو عرف فيما بعد بأنني لست مسلمة مثله؟ ماذا ستكون ردة فعله، بما أنني لا أملك الجرأة لأتكلم معه فلم أستطع أن أفاتحه وأعلمه

بالحقيقة، بأنني لست منهم، ومن الأنسب له أن يكف عن ملاحقتي ويبحث لنفسه عن غيري يغرم بها لأنه سيتأذى كثيراً معي فيما بعد. هل أخبره بالحقيقة قبل أن يتعمق وتنغرس جذور الحب في قلبه؟ إلا أنني لم أعرف كيف أفاتحه؟ ليس من الجائِز أن أذهب إليه وأتكلم معه مباشرةً وأقول له لا تحبني لهذا السبب. فقد أقع في مصيبة لا مناص منه لربما سيستنكر عند ذلك بأنه يحبني أساساً، لذلك لن أفضي بأية خطوة وأدنو منه نهائياً. أما هو فلا يملك الجرأة الكافية كباقي الشبان الذين يفاتحون البنات بسهولة ليبادر بالكلام أولاً وأخبره عند ذلك بالحقيقة، لربما كان خجولاً أو يشعر بالخوف من أن يقترب مني فأرد عليه بكياسة أمام جميع الطلاب فتنهار سمعته واحترامه، لعلّه لا يعرف طبيعتي ولربما ينتظر الفرصة المؤاتية ومن ثمّ يخطو تلك الخطوة إلا أنه عند ذاك سوف ينصدمُ بالحقيقة ويجن لأنه انشغل بي طوال تلك الفترة دون أن يعرف الحقيقة. كنت أشعر بالشفقة عليه وأحنو عليه وعلى حال قلبه الذي لم تكن في يدي حيلة لإنقاذه، وفي النهاية تركتُ الأمر يجري كما يشاء، وتركته لحاله ليكتشف ذلك فيما بعد بنفسه.

تركت الولد لحاله، يحوم وينغمر في مشاعرِه وأحلامه، وبدأ يقترب مني ويدنو أكثر فأكثر، بات يجلس بالقرب مني ويسير بجانبي، يُجاملني ويتغزل بجمالي وأنا ساكتة، لربما أنه يحسُّ بالطمأنينة تجاهي عندما لا أرد عليه أو أردعه. في بعض الأحيان كان يستشيط غضباً وأرى الانزعاج في وجهه عندما كنت

أتكلم مع أحد الأصدقاء فيما يخص الدراسة وكأن الغيرة قد أصابته، بقي الأمر على ذلك المنوال أكثر من ثلاثة أشهر دون أن يتجرأ ويكلمني ويترخص مني للجلوس معه للحظة لنتفاهم معاً. إلى أن جاء يوم وغاب الشاب تماماً عن أنظاري، ولم أعد أراه بعد ذلك لأيام، ولم أحس بعينيه تلاحقاني أو يسير خلفي ويتغزل بي كما كان، أحسست بالفجوة والفراغ من حولي كأن هناك شيء ما غير مألوف يحيط بي، ماذا حصل لعاصم وأين اختفى هل حلّ به مكروه؟ أم أنه قد وجد لنفسه شابة أخرى وتركني؟ كنت أتمنى أن يحدث ذلك بالفعل لأتخلص منه، شعرت بشيء غريب تجاهه كأنني فقدت ظلي الذي كان يسايرني فبدأت أجول بعيني أتفقد حولي كأن شيئاً ما ضاع مني، لم أدرك ما الأمر، كيف تخلى عني بهذه السهولة.

لمحته مرة أو مرتين من بعيد إلا أنه كان يغض النظر عنّي ويبتعد مني منكساً رأسه يحمل في قلبه حسرة دون أن أعرف السبب. كان واضحاً عليه أنه يتهرب مني ويتجه إلى مكان عكس طريقي، يبدو أنه قد قرّر حقّاً أن يبتعد عنّي ويتركني، استغربت، فلم يعد يهتم بي كما كان، إلا أنني لاحظت غيمة أسى تطغى على وجهه وحسرة وألم في تنهداته، لم أعلم السبب وكنت أود لو أعرف ما الذي تغير فيه، إلى أن فاتحتني صديقتي سارة عندما كنا لوحدنا، قائلة:

- هل تتذكّرين ذلك الشاب الذي سألتني عنه... عاصم؟

هزّزت راسي نافية؛ محاولة إنكاري له وبأنني أجهله. فأخبرتني بأنه قد سألها عنّي إن كانت تعرفني فأخبرته بكل شيء عني، وبالأخص وهو المهم بأنني أيزيدية عند ذلك كما وصفت لي سارة الحالة الهستيرية التي راودت الشاب فقد تجهم وجهه وأحس بالصدمة ولم يصدق كلامها وبدأ ينعتها بأنها كاذبة ويتصرّف كالمجنون.

أخيراً عرفت سبّب عزوفه وابتعاده، لقد عرف الحقيقة وأصيب بالخيبة. لذلك اختار أن يبتعد عنّي نهائياً طالما أننا لسنا من طريق واحد يجمعنا معاً، رويداً رويداً تلاشى الولد عن أنظاري ولم أعد أراه إلا صدفة ولم يبقَ لي منه سوى ذكرى مرة.

[١٢]

كان هناك شاب يسأل عن نازدار، لم أعرفه كنت واقفة أمام الخيمة عندما لاحظته وهو يبحث بين الخيم عن شخص ما مجهول، استفسر من الخيمة المجاورة فخرجت له أم قاسم وكان الشاب يشرح لها عن شيء ما ثم أشارت أم قاسم إلى خيمتنا وكأن ما يصبو إليه موجود لدينا. انفتحت أسارير الشاب وتوجه نحوي مباشرةً وسلّم عليّ ومن ثم قال بلطف:

-عذراً أبحث عن امرأة تدعى نازدار، أخبرتني تلك المرأة بأنها تسكن في هذه الخيمة.

حملقت في وجهه لم آلفه ولم يصادف أن التقيته سابقاً، سألته عما يريد منها، كنت خائفة ومتوجسة من أنه يحمل شراً تجاهها، فرد كأنه يعرف لي عن نفسه بأنه أحد أقربائها، سألته متشككة أتعمق في معرفة كنهه:

-ومن تكون لها بالضبط؟

ابتسم الشاب وهو يستمع إلى إصراري في التدخل لمعرفة هويته فرد علي:

-أنا (شمو) خطيب أختها ميان.

أصابتني الدهشة وتعثرت قدماي إذ أنه الشاب الذي خطب أختها قبل أن تخطف. كان التعب واضحاً على ملامحه لربما كان يتجول كثيراً يبحث عن نازدار إلى أن وجدها في هذا المكان. اعتذرت منه ودخلت إلى الخيمة أخبر نازدار عن ضيفها القادم، فخرجت بتوجس عمن يستفسر عنها بعد كلّ

تلك الفترة التي عاشتها لوحدها منقطعة عن أيّ شخص يهتم بها أو يسأل عنها، خرجت لتتفاجأ برؤيته، امتلأت عيناها بالدموع تلك الوهلة وكذلك الشاب أيضاً اغرورقت عيناه بالدموع وكأن مصيبة كبيرة قد حلت بهما، ثم لم يتحمل الشاب وشرع يبكي بكاءً مريراً بعد أن تذكّر ميان كان يحبها كثيراً وقد تمزق قلبه لفراقها، أدخلها الخيمة وجلس بجانبها وبدأ الشاب يحكي لنا عن الطريق الطويل الذي اجتازه بحثاً عن نازدار وقد جال في معظم المخيمات يسأل عنها إلى أن لاقاها هنا، كان فرحاً لأنه التقى أخيراً بعائلة خطيبته رغم اليأس والغم الذي كان يحمله الشاب لم يعرف ماذا يقول، أشعر بالخذلان لأنه لم يستطع أن ينقذ ميان عندما حل داعش بالمدينة فقد استطاع أن ينجو بعائلته ويخرجهم إلى الجبل ولكنه عندما عاد لأخذ ميان وجد أنه لا طريق للعودة فقد احتل داعش جميع المدينة وبقي سارحاً يحوم بين الناس يبحث عنها لعلّه يجدها وأختها إلا أنه وجد أخيراً نازدار لوحدها دون ميان بعد أن سلبوها منها عنوة وتركوها هي لوحدها تجول وتصول في الجبل.

بعد أن بقيتا معاً في الجبل ذهب شمو للبحث عن عائلته وأثناء ذلك انقطعت عنه نازدار المتعبة التي أهلكها السير ولم تستطع حتّى أن تمشي لمسافة وانفصلت عن شمو الذي عاد بعد نهار كامل ليجد بأن نازدار لم تلبث في مكانها وقد غادرته بعد أن أحاطها الخوف والفزع وانتشر الرعب

والإطلاقات النارية بين رجال المدينة وداعش الذين بدؤوا يتسلقون الجبل رويداً رويداً نحوهم.

بعد ذلك الانقطاع تعرفت على نازدار وأبقيتها معي لأنها كانت وحيدة، أما شمو فقد حاول جاهداً ومراراً أن يجد نازدار مرة أخرى ولكنه لم يفلح في ذلك وقد غادر الجبل مع عائلته وسكنوا في إحدى المخيمات البعيدة في مدينة أخرى. إلا أنه لم يتوانَ ويستسلم، واستمرَ في بحثه بين المخيمات عنها ووجدها أخيراً هنا.

لم يعرف شمو كيف يرد عليها ويعتذر منها كان يغمره شعور شديد باليأس والأسف فقدْ فقدَ شخصاً عزيزاً عليه كما هي عزيزة على نازدار، فكلاهما يربطهما نفس الشخص الذي لا يعرفان كيف يجدا طريقاً من أجل الوصول اليه وإنقاذه، وكيف يجدا أثرها في هذه المعمة الكبيرة؟

جلسا ذلك اليوم بطوله يبكيان لحالهما. عندما لمحت ذلك الحزن العميق والحسرة التي تطغى على محيّا شمو. تذكّرت سرمد، هل هو أيضاً يعيش مكسور الخاطر مثل هذا الشاب ويتذكّرني ويعيش القلق وتفيض عيناه حزناً من أجلي، نعم أنا متأكدة من أنه يمر بنفس الحال هذا المسكين ويعيش في دوامة حزن مستديم لا يقدر عليه من أجل مفارقتي. ولا يعرف كيف الخروج من شر هؤلاء الرجال حاملي الرايات السود.

لبث شمو معنا إلى أن دنا المساء وتذكّر بأنه عليه الرحيل. طلب منها أن تسافر معه إلا أنها رفضت الذهاب زعمت بأنها قد أعطت اسم وعنوان هذا

المخيم للفرقة التي تبحث عن المخطوفين وأنها في انتظار أن يعودوا لها ويأتوا لها بالخبر عنها ولن تستطيع أن تبرح هذا المخيم إلى حين عودة ميان إليها سالمة. لذلك لم يكن لشمو سوى أن يبرح المكان ويعود أدراجه إلى مخيمه ووعد بأن يزور نازدار مراراً بغية متابعة أحوالها ومعرفة آخر أخبار ميان، وقد رغب شمو في بقاء نازدار معي عسى أن يرد إلينا خبراً عن ميان فيأتون بها إلى هنا طالما أختها قد أعطت هذا المكان كعنوان لها.

[١٣]

كنت جالسة بجانب الخيّمة عندما مرت امرأة عجوز مع زوجها الكبير في السن، الرجل يستند على المرأة ويسيران لوحدهما، أدركت أنهما زوجان، شاخا وعجزا معاً وقد بلغا أواخر العمر وهما يُلازمان بعضهما ويعتمدان على بعض. تذكّرت اليوم الذي سألني فيه سرمد عما أتمناها في الحياة ولم يتحقق وكنا حينها في عيد رأس السنة فقلت له أن أمنيتي الوحيدة هي أن نكبر ونشيخ معاً، ويلبث أحدنا بجانبِ الآخر نعيش سوية. أضحكته تلك الأمنية وقال بأن تلك أمنيته أيضاً وعلق يمازحني ويصور لي حالتنا عندما نخرف معاً، لا أسنان في فمنا وحيناه يقول لي أحبّك بلهجة معمقة، ولكن للأسف الزمن قد غدر بنا وأخذ مني سرمد قبل أوانه، قبل أن أشبع من أحضانه حتّى، أضاعه مني، مغتربة عنه، ضاعَ منّا ذلك الحلم الجميل. أحمّلق في العجوزين وقد تلألأت عيناي، كنت أحسدهما، ما أسعد تلك المرأة العجوز وهي تسير بجوار زوجها الطاعن في السن.

كان سرمد يحبني بشدة كنت أخشى- أن أموت وأضيع من يديه، فسألته وماذا لو أنني مت قبلك، قبل أن أصل ذلك العمر، وماذا ستفعل لوحدك، هل ستتزوج من بعدي، عندها ضحك ملء شدقيه لتلك الخواطر وغيرتي، وقال لا تخافي فأنا أعلم بأنني سوف أموت قبلك ولن أتزوج غيرك. أتساءل الآن هل أن حدسه كان في محله وكان يتوقع مماته قبلي، هل أن الأمر له صلة

بما وقع له الآن، هل يعني ذلك بأنه قد مات وفارق الحياة كما تصّوره، تلك الأفكار السوداوية كانت تعصر قلبي وتخنقني بشدة. إلا أنني حينها كنت أصرُ عليه في أن يجيب على سؤالي (ماذا لو أنني مت قبلك؟)، كنت أحتاج إلى وعد منه لتهدأ روحي وتطفأ نار غيرتي، وإن كان لي علم اليقين بأن الرجل لا يغدر بي ويحبني كثيراً، إلا أن غيرة النساء لا حدود لها. فيضحك الرجل في وجهي ويعدني بأنه لن يتزوج مرة أخرى وسيعيش أبد الدهر وحيداً منعزلاً في بيتنا يعيش على ذكريات حبنا. إلا أن ظنوني قد خابت وتحقق كلامه، ها هو الآن أنا التي بقيت لوحدي أعيش على ذكريات حبنا.

لم يبخل عليّ الرجل يوماً ما، كان يبتاع لي كلّ ما أحتاجه وما أرغب فيه دون أن يكسر في خاطري ولو لمرة منذ زواجنا، يلبي أيّ حاجة أبتغيها وبدوري لم يكن من جانبي سوى أن أرعاه وألبي رغباته ليرضى عنّي كما هو يرضيني. يفاجئني ويجلب لي الهدايا من الموصل دون أن أعلم، كان ذوقه خلاباً فكل ما يشتريه من الملابس والإكسسوارات جميل وباهر، كان بارعاً في اختياره وكل من يسألني من أين اشتريتها أخبرهم بأنها من اختيار زوجي وأنه جلبها لي من الموصل فكانت بقية النساء يغرن مما أنا فيه ويتحسّرن من أنّ زوجي يهتم بي ويلاطفني غيّر ما كان عليه رجالهن؛ يتصرفون معهن بقسوة أو لامبالاة، فأقول لهن بأن رجلي ملاك، أنزله الله ليكون من نصيبي، فيستشطن غيرة من كلامي ويندبن حظهن وعلى حالهن كيف لم يكن لهن رجال مثله.

عندما رزقنا بطفل، بدأ يراعيني ويساهم معي في بعض الأعمال المنزلية ويهتم بالطفل أيضاً. كان سعيداً للغاية بولده رافو، يشكرُ الله مراراً لنعمته ويعتني به كثيراً، غمرني السرور لأنني استطعت أن أمنحه طفلاً يجلبُ السعادة إلى قلبه ليكون له الساعد الأيمن يلازمه ويعتني به ويكون له خير عون طالما كان وحيداً لأمه وأبيه لا أخ له ولا أخت، فكان رافو ذلك الشخص الذي أضاف فرداً لعائلته ويعوضه عن الأخ الذي لم يعرف طعمه أبداً ويصير له السند. وعدته في ذاتي بأن أعتني به إلى أن يصبح رجلاً بالغاً يعتمد على نفسه، وعندها ستكون له ملامح سرمد. ها هو رافو قد كبر قليلاً وأخذت تتشكل لديه ملامح والده بوضوح. كنت حزينة عليه لأنه قد يعيش باقي حياته يتيماً إن لم يعد والده وسينادونه باليتيم، ستكون صعبةً عليّ تربيته بمفردي، فليس هناك مثل حضور الأب في توعية الابن ونصيحته ورسم طريق حياته.

لاحظت العجوزين يتجهان صوب جمهرة من الناس كانوا قد تجمعوا لأمر ما، كأن خطباً ما قد وقع، اتسعت رقعة الناس، يأتون من كلّ صوب ويتجهون ناحية الساحة، كان هناك لغط عن زيارة شخص مهم قدم إلى مخيمنا، رأيت صبياً يهرع حافي القدمين مع الناس، استوقفته وسألته عمن يزورنا، ردّ عليّ بأن الأب الروحي جاء إلى مخيمنا. انفرجت أساريري فرحاً لكم تمنيت ملاقاته ذات يوم وها هو يشرفنا بالحضور.

لبست الحجاب وحملت رافو معي واتجهت إلى تلك ناحية، لحقتني فيما بعد نازدار. لم أرَ أبداً تجمهراً غفيراً مثلما حدث ذلك اليوم كان الجميع في شوق لرؤية الأب الروحي، لم أقدر أن أراه بسهولة فقد احتشد الشباب حوله من جميع الجهات، ومجموعة من رجال الدين يعتمرون القبعات يحيطون بالشيخ خلال مسيرته. بعد فترة انقشع الشباب من حوله وأتاحوا له المجال ليسير براحته يتفقد أحوال الناس في المخيم. كنت أرفع راسي محاولة أن أتحين الفرصة من أجل أن أراه ولو من بعيد، بعد مروره على مجموعة من العائلات والتعرف عليها غيّر مساره وسلك درباً آخر نحونا وارتد الجمهور يتجهون صوبي مندفعين للأمام، بعض الرجال من حول الشيخ كانوا يحاولون عنوة فكَّ الزحام من أمامه فغدى السير تجاهي. اصطففت مع الناس منتظرة قدومه، انقشع الحشد من أمامه وتوضح أمامي الدرب، رأيته وهو يقترب، كان الناس من الرجال والنساء والأطفال يقتربون منه ويلثمون يده، ما أن اقترب منّا حتّى توقف فجأة عن السير وبدأ يصغي إلى أحاديث الناس وشكواهم عن الظلم الذي لحق بهم وهو يحاول مواساتهم قدر الإمكان وأن يهدئ من روعهم. اتجهت نحوه حاولت الاقتراب منه أكثر، بالكاد أوصلت يدي إليه فشعر بأنني أحاول أن أمسك بيده إلا أن الخفر يحولون دون ذلك، فالتفت إليّ محاولاً مساعدتي، كانت عيناه صامتتين يملأهما الحزن، قبلت يده وأخبرته بأنني فقدت زوجي في الموصل وأنه كان يعمل هناك، فقبلَ رأسي ودعا الله بأن يصون رجلي من المكروه ويعيده لي سالماً، بتلك الكلمات أطفأ

النار التي كانت تتوقد في روحي ومس الدفء قلبي وأنا أصغي إلى دعائه والأسى يطغى على كلماته، امتلأت عينيّ بالدموع وبكيت قدر الإمكان وأنا أحضن رافو، ثمّ التفت الأب واستمر في السير، يستمع إلى الأم وأحزان الناس، يطلبون منه أن يدعو لهم من أجل عودة مفقوديهم وذويهم ويزيح عنهم هذا الهم الذي حل على قومنا. كنتُ أحس بقلبه الذي امتلأ بشجون هؤلاء النازحين، كيف يتحمل كلّ هذه الآلام والهموم الثقيلة على قلبه العجوز.

عدت أدراجي إلى الخيمة وحكيت لنازدار ما دار من حديث بيننا وأنه دعا لي من أجل سلامة سرمد، يحدوني الأمل بأن الله سيتقبل دعاءه وسأرى زوجي مرة ثانية في هذه الحياة.

[١٤]

جاء الشتاء الثقيل بكل ما يحمله من غيوم داكنة مليئة بالأمطار وتساقط الثلوج، لقد مرّ فصل دون أن ألتقي بسرمد أو أعرف عنه خبراً، الفصول تجري صامتة بدونه.

وحدها السماء تبكينا لما نحن فيها، بعد أيام ازداد غم السماء وشرع المطر ينهمر بغزارة ونحن نسكن في خيمة بسيطة.

يبدو أنّ هذا الشتاء سيمر قاسياً علينا وأنا أعيش لوحدي مع نازدار وابني الصغير. مازال المطر ينهمر بشدة على الخيمة ويصدر صوتاً صاخباً فوق رؤوسنا كأنه في صراع معنا، واشتدت العاصفة وهبط علينا الليل وامتزجت الغيوم ببعضها بقوة لترسل وميض برقها وتهدر مزمجرة في السماء صاخبة أجواء الفلكوت مما أخاف الطفل وهو يتكور في حضني ويمسكني بقوة خوفاً من أصوات الرعد. تمور الخيمة جيئة وذهاباً من شدة الهواء، كنت خائفة من سقوط الخيمة فقد لا تقاوم شدة الريح والمطر وترعد هي الأخرى.

في الخارج طلع الرجال يتسارعون لجمع الرمال ووضعها في أكياس من الجنفاص يسورون بها أطراف الخيم ويشدون أوتادها ويضعون الأوزان من الأحجار على أطراف خيمهم، فكل واحد كان خائفاً من أن تقلع الريح خيمته، صخب الرجال وعنف السماء يدمي الأجواء، الريح تتحرك بضراوة

والرجال يقاومون شدتها. أما نحن فلم يكن لنا حول ولا قوّة لنفعل شيئاً لخيمتنا، التي بدأت تستسلم رويداً رويداً لموج الريح وجنون المطر. ربطت نازدار قطعة نايلون فوق رأسها وخرجت من الخيمة، حاولت أن تشد الحبال التي تربط الخيمة وتربطها مع الوتد إلا أنها لم تقوَ على ذلك، خرجت إليها لأعاونها. نساء بلا رجال، يصعب علينا أن نواجه ظروفاً قاسية كهذه، كنت أفكر في سرمد لو كان الآن معنا حتماً لن يكلفنا عناء القلق والتفكير وسيقوم هو مثل باقي الرجال بتثبيت ركائز الخيمة وحمايتنا من صخب هذه الأهوال.

انتصف الليل ولم نقدر على النوم، تبللت أجسادنا وأنهكني البرد، أما رافو فقد ارتكن إلى النوم بعد أن غفى في حضني خائفاً. كنا ندعو بأن يمضي الليل بسلام حتّى تشرق الشمس وتنقشع الغيوم، لنعود ونصلح الخيمة ونربطها بإحكام ونضع الأحجار ونبني قاعدة عند أطرافها كنا نظن بأن الخيمة قد ثبتت بقوة عندما قاموا بنصبها في مستهل إنشاء المخيم، لربما من العجلة في إعداد الخيم لاستقبال العدد الهائل من اللاجئين كانوا يعدونها بسرعة، بقينا طوال تلك الليلة نحتمي ببعضنا، نحدّق بوجل في سقف الخيّمة التي ابتلت تماماً بالماء وبدأ يتسرب وينساب إلى الداخل ويجري بلاوعي ولاتؤدة تحت المواد والأغراض، فوضعنا طناجر وأواني تحتها، لجمع الماء ومن ثم رميها خارجاً تباعاً. بدأت أخاف أكثر كنت أستعين بالليل وأتشفع من الله أن يساعدنا في محنتنا. لم أكن أتوقع بأن الحياة

ستكون قاسية بهذا الشكل بدون سرمد، أنظر إلى نفسي وما أنا عليه أعرف مدى حاجتي إليه، إنني غير قادرة على أن أتخطى صعاب الحياة لوحدي. كلّما اشتد المطر في داخلي أنادي سرمد وكأنه سيدرك حاجتي الماسة إليه. لم نكن نعرف ماذا نعمل؟!، اشتد البرد علينا فأخذنا بطانيتنا والتحفنا بها جالسين وأسناننا تصطك من البرد، احتضنت زردشت وأنا أردّدُ في نفسي متى ستكبر مثل والدك لترعى والدتك وتهتم بها وتصبح رجلاً نحتمي في ظلك. يشتد المطر وتشتد حاجتي إلى سرمد؛ أحتاج حضنه لأحتمي فيه من هذا الصخب، كنت أحس نفسي كشجرة فارعة وسط الثلج تعصف بها الرياح من كلّ الجهات ولا أحد يأبه لها.

قطرات المطر تنهمر من السقف، كأنها نافورة ماء؛ تتوزع على الأرضية وتبلل فراشنا الذي ننام عليه، ارتعشت أوصالنا وارتجف الدم في شراييننا. لم يكن هناك من أحد يأتي يسعفنا ويتفقد وضعنا، كلّ واحد اختلى في خيمته مع عائلته، كلّ واحد مشغول بما هو فيه. أما نحن فلم نقدر على حركة؛ أين نذهب فكل مكان أسوأ من هنا.

قضينا الليل بجوار بعض، نتدفأ مع بعض، كانت لدينا مدفأة نفطية ولكننا لم نكن نملك وقوداً، أبلغونا بأن حصة النفط ستصلنا عما قريب، إلا أنه لحد الآن لم نستلم إلا وجبة واحدة وقد انتهت، المدفأة تقف في وجهنا كبومة لا حول لها ولاحرارة، وبقينا أنا ونازدار نتابع تدهور خيّمتنا والماء ينسل إلى أغراضنا وأداوتنا. وصوت لطم الخيمة لم يجعلنا ننام براحتنا،

كأنه يدق في قلوبنا طبلاً مزمجراً جنّ صاحبه الطبال بعد أن فقد زمام الأمور والسيطرة على نفسه.

حل الصباح وكان كلّ شي قد توقف، سكن المطر وهدأت الرياح. بدأنا نلم أغراضنا المنقوعة بالماء وننشف ملابسنا وننشرها في برودة الصباح. ثمّ شرعنا أنا ونازدار بجمع الحجارة من الخارج. وتحضير الطين لتثبيت الأحجار في أطراف الخيمة. في الخارج، الطريق قد ابتلت وأصبحت موحلة تغوص فيها أقدامنا وبالكاد نقدر أن نمشي فوقها، ترفض الأرض أن تفلت أقدامنا. ألمٌ يشتد في ظهري وأنا أستنشق الهواء البارد الذي يتغلغل إلى صدري وشراييني فتزداد روحي برودة، كان الجميع ينشرون ما تبلل من أغراضهم في المخيم، فتبقى الخيم فارغة من محتواها. تناهى إلى مسامعنا خبر احتراق إحدى الخيم ليلة البارحة بعد أن احترقت المدفأة وابتلعت النار ما يحيطها بشراهة فاحترقت الخيمة بالكامل مع ما فيها من الأغراض، ولحسن حظ العائلة فقد تمكنت من الخروج بسلام.

أعدنا ترتيب الخيمة ذلك اليوم وفي مساء الليلة التالية سمعت صوت أنين رافو وهو ينتحب ويكح بشدة كان في حالة مزرية وهو يتلوى في مكانه فوق الأرض الطينية حملته من مكانه وإذا بخدوده قد احمرتا، لمست جبينه كانت درجة حرارة وجهه وجسده عاليةً، انتابني القلق، كانت الحمى لديه عالية جدّاً وقد ضاق نفسه وبدأ يبكي بحرقة، لقد تغلغل المرض إلى بدنه الصغير. لم أعرف ماذا أفعل من أجل معالجته. كنت أحس بالوحدة القاتلة

لم أستطِع حبس الدموع في عيني، ماذا كان سيفعل سرمد لابنه إن تمرض وقد كان ممرضاً، كان سيقلّب الدنيا من أجل علاجه ولا يدعه لحاله إن لم يفعل له كلّ شيء، يهرع لجلب الأدوية لمعالجته ولا يبرحه حتّى يشفى. أتذكّر أول مرّة عندما مرض رافو بالحمى وتقيأ، جنّ جنونه فلأول مرّة يمرض فلذة كبده ولأول مرّة شاهدتُ عينيه تملؤهما الدموع، لم يتحمل مرض ولده؛ للحظة خاف أن يفقده، تلك الأحاسيس تراود الآباء الجدد، صرح لي عن شعوره وإحساسه بالضعف أمام تلك المواقف لكم هو صعب أن يمرض أحد الأولاد وأنت تحاول جاهداً من أجل معالجته. بعد ذلك الموقف أدركت كم هو إنساني وعاطفي جدّاً ليس في الحب وحده فالعواطف لا تقتصر على الحب فقط، هناك عواطف ومشاعر تجاه الآخرين أيضاً، وهذا ما يتبين من حرصه ومحاولاته الجادة في معالجة مرضاه ولا يدعهم يئنون تحت وطأة آلامهم.

أحدق في وجه رافو وأنا عاجزة عن فعل شيء من أجله، العيادة الطبية الآن مغلقة ولا يحضر الأطباء إلا صباحاً فكيف سأنتظر إلى يوم غد. بقيت الليل بطوله سهرانة بجانبه أحاول جاهدة أن أقلل من حرارة جسده بوضع الكمادات الباردة فوق جبينه وقدمه لتخفيف الحرارة من جسده قدر الإمكان، تمتص الكمادة الحرارة من جسده، يعود بعض الدفء إلى جسمه ولكن ما تمضي دقائق حتّى تعاود الحرارة وتطفو من جديد فوق جلده. لم أنم لليلة الثانية، دعوت من الله أن يشفي رافو وأن يهدىء من روعه وهو

يهذي من شدة الحرارة، أحسست بأنني سأفقد رافو أيضاً. لا أريد أن أفقد ثمرة سرمد ففيه نسمة منه أستنشق منه رائحته وفيه ذكرياته وطبيعته، عيناه وجفناه وخدوده تشبهانه، عندما يكبر سيكون كوالده حمدتُ الله أنه يشبهه من أجل أن تكون صورته أمامي كلّ لحظة، تلك الصورة التي هي مطبوعة في ذهني ومحبته مغروسة في قلبي لا أريد أن يغيب عنّي فهو ذريته الوحيدة المتبقي لدي منه، كنت أحاول أن أفعل أيّ شي من أجل أن يشفى.

طال الليل والصباح يبدو بعيداً، كأن الشمس أبت أن تشرق من جديد ونازدار معي تساعدني وتخفف من ألم ومعاناة زردشت، وعند الغبش حملت رافو وأخذته إلى العيادة الخاصة المفتوحة في المخيم كان الطبيب قد حضر متأخراً وعندما لاحظ ارتفاع حرارة رافو اندهش وانبهر كيف تحمل الليل بطوله فأخبرناه إننا حاولنا تقليل حرارته قدرالإمكان. فأعطاه حقنة مباشرةً لتقليل الإلتهاب الذي حصل في اللوزتين وبعدها أعطانا الأدوية اللازمة لعلاجه.

[١٥]

الدرب الممتدّ إلى الخارج أصبح موحلاً والطريق الرئيسي في المخيم يبدو من المستحيل استخدامه قام المسؤولون عن المخيم بإحضار الحصى- وبدؤوا بفرشها على الطريق.

كنت أسلك الطريق الطيني المتوجهة إلى الساحة الوسطية من هناك أراقب الطريق لعلّ هناك من يأتي من الزوار القادمين من الموصل أو من النازحين الفارين من يد داعش، كان هناك العديد من المركبات التي تأتي وتحضر معها رجال من الحكومة وهم يجلبون المؤون وكذلك المنظمات التي تقدم المساعدات وتحصي اللاجئين الموجودين والصحفيين حيث شغلهُم الشاغل البحث عن موضوع ينسجون به مقالاتهم مع الصور فنراهم يحملون الكاميرات، يصورون الكارثة والحالة المزرية التي يعيشها سكان المخيم. في بعض الأحيان تأتي مركبة عسكرية واحدة أو اثنتين محملة باللاجئيين الهاربيين من يد داعش، جلبوهم من الجهات الأمامية فينزلون منها ويعطوهم خيماً ويسجلون كأفراد جدد في هذا المخيم المكتظ بالنازحين التي بدأت أعداده تزداد يوماً بعد يوم لتحتل مساحة واسعة من الأرض، ويفترش السهل الواسع فوق التل ليصبح بمرورِ الزمن مخيماً كبيراً جداً. كنت في قلقٍ وترقب مستمرين فلم يتبين سرمد إلى هذا اليوم، لقد مرت

أربعة أشهر منذ أن وطئت قدمي هذا المخيم ولا أعرف خبراً عنه إلى الآن، بدأت أشك في بقائه حياً وأفقد الأمل في لقاء حبيبي في هذه الحياة مرة ثانية، لعلّني سألتقي به في الحياة الأخرى، عندما أموت وتنتقل روحي بعد مماتي إلى جسد آخر، فنحن نؤمن بتناسخ الأرواح، أيّ أن الرّوح بعد الممات سوف تترك هذا الجسد الفاني وتنتقل إلى جسد آخر لطفل آخر في ولادة جديدة ويستمر هذا الحال أيّ تناسخ الروح من جسد لآخر إلى يوم القيامة وهناك في ذلك الوقت سيتم الحساب على أعمالنا في الدنيا. وقد كان سرمد يدعو ويتمنى مراراً إنه إذا مات فأمنيته في الحياة القادمة عندما تحل روحه في جسد آخر أن يلتقي بي مرة أخرى وهذا ما كنت أتمناه أنا أيضاً فلن أجد روحاً جميلة وطيّبة مثل روحه الهادئة وأدعو الله أن يكون من نصيبي مرّة أخرى في الحياة الثانية.

أروح جيئة وذهاباً وعينيّ على الطريق الممتدّ خارج المخيم ولم تصل اليوم أية مركبة عسكرية، ولم يحضر أيّ نازح جديد منذ أسبوعين. فقد سمعت بأن داعش يقتل من يهرب منهم، وقد وضع حراسة مشددة على حدودِه، يقتنصُ من يهرب وقناصوه مزروعون في كلّ مكان. لذلك بات الناس يخافون الهروب من تحت سلطتهم، وفضلوا البقاء في مساكنهم من أن يموتوا في الطرقات الخفية التي بدأ داعش يحكم دروبها ويحصن حدوده ويراقب أيّ شخص يفرُ منه ليقتله فوراً دون رحمة.

فكرت بأن سرمد لربما لن يجازف ويهرب منهم متخفياً فإنهم لربما سيقتلونه، لعلّ بقاءه حياً أفضل له من الهروب خارجاً من الموصل. تذكّرت الرجل الذي حضر للمخيم الذي يدعى دلشاد عزيز، توجهت إلى مكتب عبد الستار أسأله إن جاء هذا الرجل مرّة أخرى وهل لديه من أخبار قد حصل عليها من أصدقائه في الموصل. لم يكن عبد الستار في مكانه، أخبروني بأنه ذهب إلى الجهة الأخرى من المخيم لتفقد الأعمال الجارية لتعديل الطريق وتعبيده بالحصى، وسيأتي عما قريب. انتظرته قليلاً لعله يظهر قريباً. أثناء ذلك لاحظت توقف سيّارة قديمة الطراز أمام الإدارة نزل منها رجل وامرأة مسنة، لم تكن وجوههم غريبة عليّ، سرعان ماتعرفت عليهما كان عمي صباح وزوجته، انفرجت أساريري وهرعت إليهما أحضنهما بقوة تفاجئا من رؤيتهما لي. احتضناني بقوة وقبلت رأس عمي الذي اغرورقت عيناه بالدموع، كما بكت زوجة عمي وهي تحتضنني بشدة وتتلعثم بكلمات لم أفقه منها شيئاً كانت قد بلغت من العمر الكبر كذلك عمي الذي سألته مباشرةً عما أحضرهما إلى هنا، وقد كنت سعيدة جدّاً بلقائهما كأن الحياة عادت تدب في ضلوعي من جديد بعد أن وجدت أحد أقربائي أخيراً بالقرّب مني وأنا مقطوعة الفرع وبعيدة عن أيّ من معارفي أو أحد أفراد عائلتي. أخبرني عمي بأنه كان يبحث عنّي وقد علم بأنني أسكن هنا لذلك جاء لمقابلتي لمعرفة أخباري وقد كان تواقاً لرؤيتي.

أثناء ما كنا نهم بالتوجه إلى خيمتنا بأن عبد الستار من بعيد تحيطه مجموعة من الرجال يجادلونه في أمر ما، عندما اقتربَ منّا أوقفته للحظة وسألته عن دلشاد، توقف لبرهة والتعب كان واضحاً على ملامحه، والغضب بادٍ بين تجاعيد وجهه المتغضن. أجابني باقتضاب بأنه لم يرَ الرجل منذ ذلك الحين ثمّ تركني وذهب. لم أحمل له ضغناً ولم أعاتبه على طريقة رده وسبب غضبه فقد كنت أعرف إنه رجل كريم ويحاول المساعدة إلا أن الأعباء والمسؤوليات الكثيرة التي كانت ملقاة عليه كبيرة من أجل تنظيم وإدارة المخيم بأكمله وقد كان مرهقاً وكان واضحاً أن الأشخاص الذين يحيطونه كانوا قد أغضبوه في أمر ما، ولكني استفهمت منه بأن دلشاد لم يحضر إلى المخيم منذ ذلك اللقاء إلا أنني كنت متيقنة بأن الرجل قد وعد بأنه سيرجع مع الخبر سواء بالإيجاب أو النفي في أيّ وقت يردّ عليه أصدقائه في الموصل عن سرمد، لربما إلى الآن لم يصل الخبر الأكيد أو اليقين من أصحابه في الموصل أو لعلهم مازالوا يبحثون بجد عن مكان سرمد ولم يجدوه لحد الآن. تركته وأخذت عمي وزوجته مع حقيبتهما إلى مخيمي، يملؤني الفرح لأول مرّة منذ مدة وأنا أسير بجانب عمي صباح كطفلة تسير بجانب والدها، لقد تغيرت ملامحه كثيراً وأصبح أكبر مما كنت قد رأيته سابقاً.

في المخيم أخذوا رافو في أحضانهم، قال عمي:

-لقد سألنا عنك كثيراً وذهبنا إلى عدة مخيمات سابقاً. كنت في بالي.

-كنت في لهفة إلى رؤيتكم، ولكن لم أكن أعرف كيف أصل إليكم، فقد كنت مشغولة البال للبحث عن مكان زوجي سرمد.

تنهد عمي وهزّ رأسه حائراً:

-كم من مرّة طلبت منه أن ينقل نفسه إلى سنجار ماذا كان يستفاد من العمل في الموصل، ها هو كما ترين لقد انقطعتما عن بعض.

أخبرته عن محاولتي مع المنظمات من أجل البحث عنه، ومن طرفِه أخبرني بأنه يحاول جاهداً أن يجد مكانه. ثمّ أخبرته عن صحفي يدعى دلشاد يحاول مساعدتي في إيجاد سرمد وأنا في انتظار قدومه ليجلب لي أيّ خبر عنه.

مساء ذلك اليوم، حكىَ لنا عمي ماذا حدثَ لهم وكيف هربوا من سنجار، كانوا قد عانوا الكثير فقد ساروا كثيراً من الجبل إلى الطرف الآخر. وقد التحقوا إلى مخيم آخر. كنت أنظر إلى التجاعيد التي ملأت وجه عمي كانت التعرجات قد ازدادت عمقاً في وجهه وازداد شعره شيباً وكأنه قد كبر عشر سنوات في العمر خلال فترة وجيزة لا تتعدى شهوراً وقد أثرت به تلك الأحداث وغمره اليأس، لقد كان يملك محلاً كبيراً في سنجار وعملَ كثيراً إلى أن استطاع أن يكون نفسه وعانى الكثير في عمره إلى أن توصل إلى تأسيس محل لنفسه والآن قد فقد كلّ شيء في لمحة بصر، قال لي فيما بعد جملة لم تزل ترن في أذني:

-لقد وصلت إلى قناعة وهي أن كلّ ما نبنيه في هذا البلد ماهو إلا مثل قلعة من رمل تزول في أية لحظة يغضب الموج، فلا أمان ولا استقرار في هذه البقعة من العالم.

كان حُزنه عميقاً جدّاً أثر فيّ كثيراً، أحسست بأن حياته كلها قد ذهبت هباءً ولم تعدَ له قدرة على أن يبني حياته من جديد. أما زوجة عمي التي كانت تتلعثم عندما تتكلم فقد أرهقها تعب النزوح والترحال وعلا الحزن محياها لذلك كانت قد ارتكنت إلى الصمتِ والهدوء، تضع يداً فوق يد وهي تهزّ جسدها حزناً كأن لا شيء في يدنا لنفعله.

أخبرني عمي فيما بعد أنه حاول جاهداً أن يسأل ويبحث عنا إلى أن توصل إلى معرفة مكاني وأتى قاصداً ليأخذني معه إلى مخيمه الذي يسكن فيه. كانت نازدار تحدّق فيّ بإمعان وتتوجس قلقاً مما سأقرّره؛ الذهاب مع عمي أوالبقاء معها في هذا المكان، الخوف من أن أتركها لوحدها يحوم في خاطرها، في الحقيقة لم أشأ أن أدعها لوحدها هنا وهي لا أسرة لها وكما فكرت في الصحفي الذي وعدني بأنه سيسأل عن سرمد فسوف يأتي ويزورني هنا، لذلك فبقائي هنا أفضل من الذهاب مع عمي لعلّ تأجيل تلك الفكرة إلى وقت آخر أحسن من الذهاب الآن، شرحت لعمي الحال الذي أنا فيه وأنني في انتطار وصول أيّ خبر عن سرمد لذلك فضلت البقاء هنا وأن أؤجل أمر الرحيل معهم بعد فترة أخرى، أخذت منهم رقم هاتفهم عسى أن أتصل بهم بعد حين من أجل الذهاب معهم، فالسكن بجوار الأقرباء لهو أفضل

من السكن بعيداً لعلني سأحتاج إليهم في أمر ضروري وهم سيعتنون بي إذا كنت قريبة منهم. وطالما أن رافو معي وهو طفل صغير يحتاج إلى من ينتبه إليه عندما يكبر.

في اليوم الثاني غادر عمي وزوجته المخيم على أمل أن أتصل بهم ذات يوم لأخبرهم عن سرمد أو أتصل بهم للذهاب والعيش معهم كي لا أبقى وحيدة هنا، وبعد أن رحلوا حضنتني نازدار وهي تجهش بالبكاء وتشكرني لأنني لم أتركها لوحدها.

[١٦]

سمعت طرقاً على باب خيمتي، جفلت قليلاً وفكرت من سيزورنا في هذا الوقت المتأخر من الليل، توثبت من فراشي وأبعدت رافو عن حضني وتوجهت ناحية الباب، تسلل إلى الخيمة نور ساطع حالما واربت الباب، تخيلت حينها بأن الشمس قد أشرقت وإن النهار قد انبلج، رأيت شبحاً، ظلّ شخص تحيطه هالة الشمس من الخلّف لم أميّز وجهه بوضوح من الوهج، انقشعت الهالة وتبين لي وجه الزائر وبدأت أميّز ملامحه بوضوح، انفتحت حدّقتاي وسعهما حينما لاحظت سرمد بوجهه وجسده شاخصاً أمامي، اقشعر جسدي من الغبطة لم أكن أعرف ماذا أفعل من شدة الفرح، كان واقفاً بلا حراك يحملق فيّ بدون كلام، كأن الكلمات قد اختنقت في حلقه، لامست يده ولامس يدي أحسست بيديه الناعمتين، ضغطت على يده بقوة، انشرح وجهه بابتسامة وغمره السرور، وجهه البريء الصافي كصفحة ماء النهر ينساب إلى روحي، كنت في غاية الغبطة. وأخيراً بعد انتظار طويل عاد حبيب روحي وعاد إلى أحضاني. سحبني من يدي إلى الخارج وشعرت أنه يريد أن يأخذني إلى مكان آخر. تابعته وأنا في شوق إلى أحضانه إلا أنه واصل السير يحدّق فيّ تارة وينظر إلى الطريق أمامه تارة أخرى، تعجبت من صمته وعدم كلامه، ماذا جرى له، لماذا لا يتكلم هل فقد لسانه؟، ماذا قد فعلوا به؟، لم أشأ أن أمانعه أو أشده إلى حضني، تابعته

بهدوء، صعدنا إلى الربوة الموجودة بجانب المخيم، كانت هناك شجرة صفصاف عملاقة لوحدها، من هناك أشار بيده ناحية الغرب باتجاه الموصل والتفت إليّ مرّة ثانية وفي وجهه تلك الابتسامة التي لم تفارقه، ثمّ ترك يدي وباشر بالسير مبتعداً عنّي بذلك الاتجاه وبات هيكله ظلاً هلامياً يتقلص مع ابتعاده، لحقت به محاولة الإمساك به إلا أنه بدأ يختفي عنّي بسرعة أكثر ومن ثمّ تلاشى عنّي نهائياً، غمرني الأسى وطفقت أصرخ عالياً أطلب منه العودة وتعالى صوتي في أرجاء المكان، واختنق صوتي لأصحو فجأة من على فراشي وإذا بنازدار قد فتحت عيناها ترنو إليّ وأنا أفز من حلمي وأتنهد بعمق بعد أن رأيت سرمد. لقد كان هو، لقد زارني في الحلم يا لسعادتي كنت أتمنى أن يكون واقعاً ويا ليتني لم أصحُ منه. اعتراني الحزن لأن ما رأيته كان مجرد حلم، ومن ناحية أخرى ابتهجت جدّاً لأنني قد رأيت سرمد أخيراً مرّة أخرى بعد أن غاب عن أنظاري لفترة طويلة كدت أنسى ملامحه الحقيقية في مخيلتي وكيف استحال شكله الآن.

كان الظلام دامساً في الخيّمة، أوقدت نازدار الفانوس واقتربت مني تستفسر عما حدث لي وإن كنت بخير في مثل هذا الوقت المتأخر من الليل، وقد أدركت فيما بعد بأنني قد صحوت من حلم غريب. لم أعرف ماذا أقول وكيف أبدأ بالكلام، فقد تعطلت لغة الحوار من هول الحلم ولم أعد إلى وعيي كاملاً إلا بعد أن فتحت عينيّ وسعهما وتنفست بعمق لأقول لها كلمة واحدة خرجت من فمي بصعوبة:

-لقد رأيته.. لقد زارني سرمد في الحلم.

اتسعت عينا نازدار استغراباً واقتربت مني تحدو أذنيها لتسمع مني ما حلمت به وأقص لها تلك اللحظة الوهاجة التي انتابتني، سردت لها الحلم فأصغت إليّ باهتمام ووجل، كان العرق يتصبب من وجهي، فغرت فاها بابتسامة وتملكتها السعادة لأنني رأيت زوجي أخيراً وإن كان في حلم. ثمّ قلت بصوت خافت محاولة أن لايستيقظ رافو من نومه العميق، سألتها إن كانت تعرف تفسيراً لحلمي، أطرقت رأسها تفكر في أن تجد له معنى ثمّ أردفت بعد حين:

-أبشري، أظن بأنه لم يزل حياً وهو يشتاق إليك وعندما جرك إلى الشجرة فإنه يطلب منك أن تصبري لعله سيرجع إليك ذات يوم .

أفرحني ما نطقت به نازدار لعلّ كلامها صحيح لربما أن زوجي لم يزل حياً يعيش سالماً ويطلب مني الصبر إلى أن يعود بلحمه ودمه.

حاولت أن أعود إلى النوم عسى ولعلّ أرى سرمد مرّة ثانية في الحلم ولكن شوقي إلى رؤية سرمد حال دون أن يعود النوم إلى عيني، استلقيت على الفراش حتّى الصباح وأنا أقلب في رأسي العشرات من الأسئلة التي تجوز تفسيرها، لعلّه زوجي قد وجد مكاناً يختبئ فيه أو أنه ذهب إلى مكان آخر بعيد عن الموصل أو وجد لنفسه طريقة يخفي حقيقته عن داعش.

صباح اليوم التالى نهضت من فراشي، يحدوني الأمل أن أرى سرمد قريباً واتجهت باكراً إلى خارج المخيم، صعدت التلة المجاورة حيث تلك الشجرة

التي رأيتها في الحلم تلمستها وجلست بجانبها أرنو النظر ناحية الطريق المتعرج والذي يؤدي إلى الموصل أترقب ظهور سرمد في أية لحظة من هذا الجانب، لعلّه كان إشارة لي في أن أنتظره هنا لأرى إطلالته لحظة وصوله إلى هذا المكان.

الشجرة التي قعد بجانبها ذكرتني بالشجرة التي ضعت تحتها يوماً ما وأنا طفلة. كانت تشبه تلك الشجرة الواقعة فوق الربوة. كنت صبية حينها لم أبلغ من العمر الرابعة. أتذكّر حينها كنا قد ذهبنا مع والدي ووالدتي إلى القرية لحضور حفل زفاف عمي صباح. كانت القرية بعيدة عن سنجار بمسافة، وعندما وصلنا إلى هناك كان صخب الدبكات والموسيقى منتشرة في أجواء القرية بمناسبة الحفلة، الفرح يغمر الناس يرقصون ويتحلون باجمل الملابس، يعّدون ولائم كبيرة ويدعون فيها الناس من جميع الجهات ومن القرى المجاورة، استقبلتنا جدتي التي كانت تهلهل فرحاً بزواج ابنها الثاني، كانت تربط رأسها بإحكام وتلبس الثياب البيضاء التقليدية، تكحلت عيناها بالرتوش رغم كبر عمرها، لم تكن تلائمها كنت أراها غريبة في عيني، فلتُ من يديها لما قبلتني. والدي الذي كان أكبر من صباح أخذ يدير العرس ويهتم بالزائرين من الرجال ويقعد معهم في الديوان الكبير لمنزل جدي الكبير وبحوشه الوسطي الواسع أما صباح عمي فقد كان شاباً يافعاً ضعيف البنيان حين ذلك يهتم بنفسه ويلبس هنادمه الفضفاض والكبير عليه يحيطه أصدقاؤه يساعدونه ويمازحون معه. أما

والدتي فقد كانت تهتمُ بتحضير وإعداد الموائد للموجودين في الحفل، تحضرُ الأكل مع بقيّة النساء وتشرف على الطبخ وإعداد الطعام. كانت الحياة جميلة رغم بساطة الناس حين ذلك والظروف الصعبة والفقر الذي كنا نعيشه إلا أننا كنا نعيش بأمان بعيد عن الحرب والاقتتال الطائفي، تلك الأيام كانت مليئة بالحب والمودة بعيداً عن الكراهية والعنف، يومها توجهت مع عمتي سارة إلى بيت العروسة، هناك حيث نعد ونجهز العروس ونزينها بأبهى الزينة والمكياج، كانت ملابس العروسة بسيطة جدّاً فقد صنعتها لها والدتها إلا أنها كانت في غاية الجمال، وحينما ألبستها كنت أرنو إليها وقد أعجبني جمالها، تركتني عمتي لوحدي وأخذت تُلهي نفسها مع الصبية في تزيين وتجميل نفسها في الغرفة التي خصصت للفتيات والنساء من أجلِ الزينة كلّ واحدة تأخذُ مكياج الأخرى وتستعمل أقراط الأخريات وقطعة الشال من فتاة لأخرى لتكمل تزيين الثوب الذي ترتديه، رغبت في أن أقتني من مكياجهم وأملي شفتيّ بالمكياج الأحمر مثل بقيّة الفتيات، نهرتني إحداهن ومنعتني من استعمالِه قائلة بأنني لم أزل صغيرة حتّى أكحل عيني، أغاظني الأمر وأحزنني ورغبت بالبكاء الشديد فدوّى صوتي في أنحاء الغرفة مما أزعج الفتيات اللواتي رغبن بطردي من الغرفة، لم تهتم بي عمتي ولم تبالِ لما يجري لي فقد كانت مشغولة مع فتاة أخرى بالزينة وتَحكي لها أسرارها، أخرجوني من الغرفة وامتلأت عيناي بالدموع، في حينها اقترب مني صبي صغير قريب من سني له عينان جميلتان، استغرب من بكائي

الشديد وكأنه يريد أن يستعطف بي ويهدئ من روعي ويطلب مني السكوت فقدّم لي لعبة صغيرة كانت في يده، إلا أنني لم أتقبلها وبقيت أبكي، فشدّني من يدي وهو يطلب مني الصمت، إلا أنني لم أهدأ وعجز عن أسكاتي، وقّفَ في مكانه وهو يحملق فيّ لا يعرف كيف يسكتني فيسألني أين أبي وأمي لم أرد عليه وبقيت في حالي وشرودي أحدق إلى عينيه الجامدتين. سألني عدة أسئلة لم أجاوبه ثمّ غضب مني كأنه يئس من استجابتي فاستدار وتركني لوحدي وذهب مبتعداً عني، أحببت قربه لي فقد كان لطفياً ويرغب في اللعب معي إلا أنني رفضت ذلك. أخذت ألاحقه لعلّه يعود ويلعب معي إلا أنه لم يلتفت، كان يتجه باستقامة في طريق واحد ثمّ يعرج بين فروع البيوت الطينية وسار على حافة القنوات الصغيرة التي تمرّ بين المنازل، كنت أشم رائحة الطين التي تنبعث من جدران بعض المنازل المتصدعة، يظهر بأنها قديمة وقد غادرها أهلها. كنت أنتظر من الصبي أن يلتفت إلى الخلّف إلا أنه لم يفعل. أردت أن أناديه إلا أنني لم أعرف اسمه. ثمّ أحسست بنفسي بأنني عبرتُ عدة فروع دون أن أعرف أين هي وجهتي ثمّ شعرت بأنني ضعت ولم أعد أبصر طريقي. استمرْرَت في ملاحقة الصبي من بعيد كنت أعتقد بأنه في طريقه إلى الحفلة فجميع أهل القرية يتجهون إلى ذلك الصوب لذلك تبعته محاولة أن أصل إلى بيت جدي وأرتمي فيحضن أمي، ابتعدت الدروب وضعت بين المنازل وبعد قليل لم أرَ أحداً سوى ذلك الصبي، أخذت أناديه إلا أنه لم يلتفت كان قد ابتعد عنّي

كثيراً بعد أن تردت في متابعته أكثر كنت خائفة وفزعة لم أعرف ماذا أفعل، كنتُ وحيدة، ثمّ وجدت نفسي قد وصلت إلى نهاية الطريق حيث نهاية القرية وكان السهل واسعاً أمامي، لم يكن هناك من شخص حولي أستفسرهم عن مكان الحفلة أو يعلمون بأنني ضائعة فيأخذوني إلى والدي، بدأت أرتعب كثيراً من الكلاب المنتشرة حول القرية وهي كلاب شرسة سوف يفترسوني إن شاهدوني، تغلغل الخوف إلى كياني وشرعت بالبكاء، عمتي التي لم تعرني الاهتمام هل هي تبحث عنّي الآن أم أنها لم تزل منشغلة مع أصدقائها في غرفة المكياج. رأيت الصبي يتسلق ربوة في أعلاها شجرة، لم يكُن أمامي سوى أن أسأله ليعيدني إلى والديّ، ناديت عليه بصوتٍ عالٍ إلا أنه لم يلتفت كان بعيداً عني، ركضت بأقصى ما يمكن لأصعد الربوة من أجلِ أن أصله وأوقفه، اختفى عن أنظاري فلم أعد أراه، وصلت إلى شجرة الصفصاف التي على التلِ، هناك نظرت إلى الناحية الأخرى من السهل لم أعد أرى الصبي فقد اختفى عن ناظري بين سيقان حقول عباد الشمس، لم يعد هناك من أحد، جلست خائفة وبدأت أبكي بأعلى صوتي وأنا أستنجد وأبحث عن شخص ما ليأتي لنجدتي، بعد فترة رأيت شيئاً ما يتحرّك بين النباتات فاشتد خوفي بأن يكون كلباً، فجأة برز الصبي من تحت زهرة عباد الشمس وبدأ يحدّق فيّ باستغراب تلك النظرات لم أزل أتذكّرها إلى يومنا هذا كانت نظراته مشابهة لنظرات سرمد. عاد الصبي نحوي وهو ينظر إليّ باندهاش مستفسراً لماذا لاحقته، ثمّ أخبرتُه

بأنني أريد أمي وقّف للحظة والتفت إلى حقولِ أزهار عباد الشمس ثمّ التفت نحوي لم أعرف ماذا كان يفعل ذلك الصبي في ذلك الحقل ولماذا التفت إلى أزهار عباد الشمس وعاد إليّ. حينها جرني من يدي وأعادني إلى الحفلة حيث ركضت إلى حضن أمي التي كانت مشغولة بإعداد الطعام وأخبرت أمي بأنني كنت ضائعة، فلامت أمي عمتي كثيراً لأنها تركتني وشأني.

أتساءل الآن هل كان ذلك الصبي هو سرمد، فقد كانت عيناه سوداوين وبريئتين مثل ذلك الصبي وقد صادفني أن رأيته هناك، أعلم بأن سرمد كان له أقرباء في تلك القرية إلا أنه لم يخطر في بالي تلك الذكريات حينها من أجل أن أحكي لسرمد تلك القصة، لربما كان سيرد ويقول لي نعم لقد كنت أنا.

ها أنا الآن أتذكّر حالي وأنا في نفس الوضع، كأن الزمن يعيد نفسه، أجلس بجانب شجرة الصفصاف وفي داخلي حرقة كبيرة وحزن أليم، أحس بما أحسست به ذلك اليوم، أشعر بالوحدة الموحشة أنتظر أن يظهر سرمد من ذلكِ الطريق ويعود إليّ، انتابني ذلك الخوف الطفولي الذي مررت به، كنتُ خائفة من كلّ شيء، فلم يعد هناك من شخص بجواري لقد كان زوجي كلّ حياتي وأنا الآن لوحدي كالطفل أخشى من الكلاب والغرباء، لو كان سرمد بجانبي لربما لم أكن أهتم بما يجري لنا من النزوح والسكن في المخيمات، فقد كان سرمد هو دعامتي التي أعيش في ظلها، أما الآن فأحس بأن حياتي

باتت بلا سقف، حياة مفتوحة لكلِ الاحتمالات، حياة فارغة بلا أمل، كان سرمد سيحميني من الظروف القاسية، بدأت بالبكاء، بكاء شديد لا إرادي، لم يكن هناك من أحد بقرّبي يسمع نشيجي، أطلقت مافي جوفي من حزن وألم كنت قد كتمته، أرنو ناحية الطريق وأدعو الله بصوتٍ عالٍ لكي يعيد لي سرمد، أن يبان في ذلك الطريق، كما ظهر ذلك الصبي يومها بين أزهار عباد الشمس.

[١٧]

وردَتنا الأنباء من الخيم المجاورة بأن عبد الستار مسؤول المخيم قد أزاحوه من عمله ذلك وعينوا بديلاً عنه، أحزنني الأمر كثيراً فقد كان نشطاً ومخلصاً في عمله ويسعى لخدمة النازحين إلا أنني لم أفهم سبّب إخراجه من العمل، هل تقاعس عن أداء مهامه أو أنه قد عثر عن عمل آخر براتبٍ مجزٍ، لقد كان الشخص الوحيد الذي يعرف الصحفي دلشاد عزيز وينبؤني بوقت قدومه إلى المخيم لينقل لي أخبار سرمد فمن سيخبرني بمجيئه بعد الآن؟ وقد طال أمد انتظاري له أكثر من شهرين ولم يتبين هذا الرجل، هل أنه قد خان وعده؟ وكذب عندما وعدني بأنه سيبحث عن سرمد؟ هل كان ينوي أن يهدأ بالي لأنسى فقدان زوجي تدريجياً؟ ولكن ما مصلحة الرجل في أن يفعل ذلك، فأنا لم أتحدّث معه سوى دقائق معدوة، هل كنتُ غبية بدرجة أني صدقت كلامه بأنه لديه أصدقاء في الموصل يتصل بهم ليساعدوه، أتصّور نفسي غشيمة ففي هذه الظروف لا يمكن الاتصال بأي شخص في الموصل فداعش إن كشف بأن هناك من يرسلون الأخبار خارج الموصل فسوف يقومون بذبحه ولا أحد مستعد لأن يخاطر بحياته من أجلِ ذلك الصحفي الغريب. أحسست بأنني بلهاء لأنني صدقته، لو كان الرجلُ أميناً في قوله لكان قد بان إلى الآن لا أن يختفي كلّ تلك الفترة، حتّى أنني كنت أخشى أن أصرّح لعبد الستار بأنني أشعر بأن الرجل قد كذب علينا.

كنت أخاف من أن يغضب ويزعل مني ويكّف عن مدّ يد العون طالما كان يحاول أن يمنحني القليل من الطمأنينة في محاولاته الجادة من أجل إيجاد زوجي فامتنعت عن قول ذلك، إلى أن جاء اليوم الذي غادرَ فيه المخيم دون أن يكون لي علم بذلك. فبقيت وحيدة.. وحيدة في عالم شاسع من الفراغ لا يحتوي أية بارقة أمل، أنتظر القدر وماهو مكتوب على الجبين الذي لا يأتي ليأخذني وأموت لأنتقل إلى العالم الثاني لعلّني هناك في العالم الآخر أجد سرمد في انتظاري وينتهي ولعي ووجعي اللامتناهي.

كنت أعد الطعام لرافو من الأصناف الغريبة من المعلبات المستوردة التي تجهزّنا بها المنظمات الإنسانية مقابل مبالغ طائلة لا تقدر، سمعت بمنظمات جديدة قد تكونت من أجل أرباح مالية، منها ما يصلها مبالغ من جهات معدودة إلا أنها لا تقوم بصرفها تماماً على اللاجئين وإنما يذهب ليشتري بها أشياء رخيصة كمعجون أسنان وفرشاة صغيرة (لا أعرف لماذا كلّ هذه الفرش الكثيرة، هل حقّاً أن كلّ ما كان ينقصنا يستصغر إلى شيء كفرشاة أسنان) ومشط ومعلب طماطة ويظهر للملأ على أنه قد قدم الكثير للنازحين. تأتينا أكلات سريعة ومعدة لايمكن أكلها في الغالب وقد جلبت من مصادر غريبة لا يعرف كنهها وكيف أعدَت لتكون وجبات حاضرة، كان هناك الكثير ممن لا يقدرون على أكلّ هذه الوجبات إلا أن المهم بالنسبة إليهم بأنهم قد قاموا بالواجب. أما أنا فقد كنت مجبورة مع نازدار أن نعتاد ونتغذى على تلك الأصناف من الأطعمة، فنازدار لا تُبالي

بما تدخل إلى معدتها، تأكل بصمت دون أن تتفوه ولو لمرة عن طعمها ومذاقها. كان معظم أهالي الخيم المجاورة يعتمدون على ما يحصلها رجالهم من المال من عملهم خارج المخيم وما يشترونه من سوق المدينة من الخضروات والحبوب المطلوبة للطعام، هناك من هو موظف لدى الحكومة لديه راتب شهري من الدولة فيعتاشُ عليه، أما أنا فلا زوج معنا لنعول عليه حتّى أننا لا يصلنا من معاش سرمد الذي كان يعمل في ذلك المستشفى شيئاً فهو غير موجود بنفسِه ليتفقد راتبه.

بعد أيام تبين بأني قسوت على الصحفي وظننت به السوء، فبعد انتظار وترقب طويل ظهر دلشاد عزيز غفلة، كان في حوزته أخبار يريد أن يوصلها إليّ، كنت في الخيمة أعد حساء العدس حينما سمعت من يناديني، خرجت وإذا بي أرى سيّد دلشاد ينتظر بجانب رجل يبدو أنه من موظفي إدارة المخيم، ترقرقت الدموع في عينيّ وأنا أنظر في وجه دلشاد الذي غابَ عنّا فترة طويلة يبدو أنه قد نحف قليلاً ووجهه كان شاحباً، دعوته للدخول إلى الخيمة فاعتذرَ وفضّلَ البقاء والتكلم خارجاً، سارعتُ لإحضار فراش من الداخل ومددته على الأرض الرطبة ليجلس عليه، كان يبدو عليه الإعياء وقد جاء من مكان بعيد، يكسو الملابس نفسها التي كان يرتديها سابقاً، قعد وأطلق زفرة طويلة أعقبها صمت طويل وهو يحملق بعينيِه في الأطراف. كانت أنفاسي مكبوتة أنتظر منه أن يدلي بكلمة ويخبرني بما

يحمله من أنباء، أحضرت نازدار كأساً من الماء بعد أن علمت أنه الصحفي الذي يبحث عن سرمد، كنا في شغف بانتظار أن يتكلم الرجل، قال معتذراً:

-آسف على التأخير فقد طال غيابي، كنتُ مشغولاً في أمور أخرى، في الآونة الأخيرة كنت أزور الجبهات الأمامية كثيراً أخذ معي بعض الأصدقاء من الصحفيين الأجانب نقوم هناك بتغطية أمور الحرب. لذلك تأخرت عن القدوم إلى هنا، واليوم كنت في طريقي إلى البلدة المجاورة ومرّرت من هنا وتذكّرت بأنني أحمل لك نبأ عن زوجكِ لذلك عرّجت إلى هنا قبل أن أستمر في طريقي.

تنفسَ صعداء وقال بعد برهة من الصمت وهو يؤشرناحية باب المخيم:

-يبدو أنهم قد تخلوا عن خدمات سيّد عبد الستار، فلم يعد يعمل هنا، لقد سألت عنك من الإدارة الجديدة وهم جاؤوا ودلوني إلى خيمتك فقد نسيت مكانه.

هزّزت رأسي بالنعم وكنت أقول في نفسي، لعلّك لا تعلم كم من المراتِ كنت أذهب إلى الإداراة أستفسر عنك وأنتظر أيّ خبر يردُ منك وقد خاب ظني كثيراً بعد ذهاب عبد الستار، وها هو الرجل يأتي بنفسه إلى المخيم لابد أنه يحمل خبراً مهماً لذلك دعاه إلى أن يحضر إلى هنا. استمر الرجل في كلامه:

-لقد اتصلت بصديق في الموصل وطلبت منه أن يبحث عن سرمد حسب الأوصاف التي أعطيتني إياه والمكان الذي يعمل فيه وقد أخبرته بأن سرمد

صديق مقرّب إلي وأريد أن أعرف أخباره ويهمني أمره وقد طلب مني مهلة حتّى يكشف عن مكانه وسكناه. بعد أسابيع اتصل بي صاحبي وأخبرني بما فعله، لقد بحث كثيراً عن سرمد وتفقد مكانه وسأل الكثيرين عنه وخاطر بحياته من أجله. في البدء ذهب إلى المستشفى واستفسر عنه هناك، أخبروه بأنه بعد دخول داعش لم يبقَ هنا وقد غادرَ المسشفى بعدها مباشرةً لم يعرف أحد من أصحابه الذين بقوا في المستشفى إلى أين ذهب، لم يعرف أحد عن مكانه وإلى أيّ طريق اختار أو أن داعش قد أسرته، ثمّ ذهب الرجل إلى المكان الذي كان يقيم فيه وهناك لم يَجد له أثراً، لذلك خمن صديقي بأنه لابد وأن الرجل إن لم يكن في الموصل لربما يكون قد أُسر. واستفسر من شخص آخر كان يعمل طباخاً في سجون داعش إن كان هناك شخص في ذلك السجن يُدعى سرمد خيري سيدو، وقد أعطاه الاسم الثلاثي وبعد أيام عادَ الطباخ ليخبره بأنه لا يوجد شخص بهذا الاسم. لذلك يبدو أن سرمد لم يقع بيد داعش، ولا يتواجد في المستشفى، اتصلَ بي صاحبي ليبلغني بالخبر بأنه لم يجد له أثراً. أنا آسف لم أستطع أن نصل إلى أيّ خبر له، لربما يكون مختبئاً في مكان ما، أو أنهم قد...

ثمّ سكت كأنه لا يريد المواصلة في الكلام والذي يقصد فيه لربما أنهم قد قتلوه منذ بداية الأحداث. فإذاً لماذا ليس له أثر في المستشفى الذي كان يعمل فيه ولا هو أسير لدى داعش. كأنّ الأرض قد انشقت وابتلعته، إذاً ماذا حدث له؟ إلى أين قد ذهب؟ هل غادرَ المدينة؟ ولكنه إن كان قد

استطاع الهرب فإنه حتماً كان سيأتي إلى هنا ويبحث عنّي في كلّ المخيمات، فبإمكانه أن يجدني بسهولة، لا أتوقع بأنه قد خرجّ من الموصل أبد.

لم أعرف كيف أرد هذا الجميل لذلك الرجل، لقد فعلَ من أجلي الكثير، شكرته جدّاً لجهوده وشكرته لأنه قد وفى بعهده وعمل ما أمن له أن يفعل، وطلبت منه أن يبلغ شكري لصاحبه الموجود في الموصل لجهوده الكبيرة في إيجاد سرمد، الآن اطمأننت كثيراً بأن سرمد ليس موجوداً في سجون داعش ليتعذب هناك، هو إما أن يكون مختبئاً في مكانٍ ما في الموصل أو أن روحه قد بلغت عباب السماء.

[١٨]

وأخيراً وصلتنا الأنباء المفرحة..

بعد عدة أيام، جاءَ موظف من الإدارة يطلبُ من نازدار الحضور إلى الإدراة لأمرٍ هام، لم أعلم ولم تعرف هي لماذا يستدعونها، كانت تغسل الملابس في وعاء كبير تدنو رأسها دون كلام، كان ذهنها على دوام في مكان آخر ليس في هذا العالم، لذلك عندما جاء الرجل ينادي باسمه، فزت من مكانها وندت منها آهة تسأل عمن يناديها. استغربت فإنها لأول مرة يستدعونها، فلا أحد يهتم بها ولا لأمرها، فلماذا يريدونها الآن؟ هناك خطب جلي قد وقع، كان الرجل نحيف البنية يضع سيجارة بين أسنانه الصفراء، يقول بحنكة (يريدونك في إدراة المخيم)، لم تستفسر قامت وتبعت الرجل بصمت. بقيتُ في الخيّمة أنتظر عودتها لربما تحمل أنباءً جديدة، ولم يخب ظني عندما رجعت نازدار وقد انقلب شكلها كثيراً، كان الفرح يغمرها، تلك الانقلابة في محياها لم آلفها في وجهها أبداً منذ لحظة لقائنا فوق جبل سنجار، كأنها شخص آخر غير تلك نازدار التي كنت أعرفها، يملؤها السرور ومن شدّة البهجة كانت تبكي والدموع تنهمر على تجاعيد سحنتها، أطلقت ما تخبو في قلبها بعبارة واحدة كأنها تريد إصدامي بتلك المفاجأة السارة لتقول بصوت عالٍ:

-لقد وجدوها.. أختي ميان لقد وجدوها.. أنقذوها من يد داعش.

اهتزّت الأرض تحت قدمي، وتراخَت قدماي وأنا أسمع تلك الكلمات، كأن أذناي لا تُصدقان ما باحت به المرأة. وأخيراً لقد وجدوها، تلك الفتاة المسكينة، احتضنتها بشدة، ودموعي تدفقت لا إرادياً، وأخيراً ارتاح قلبها المسكين المحمل بالآهات والآلام على فراقِ أختها الوحيدة ميان، دلفَت إلى الخيمة وشاع النبأ وجاءت النسوة من المخيمات المجاورة يستفسرن عن الخبر، وتجمع الناس حولها كلّ منهم يسأل عما حدث، قالت بأنهم استدعوها للإدارة ليبلغوها بأنهم قد وردهم اتصال من جهة مُتعلقة بإنقاذ الفتيات المخطوفات من الإزيديات بأنهم قد عثروا على ميان في سوريا وقد استرجعوها إلى العراق وسيحضرونها إلى هنا غداً.

كُنا في غاية الفرحة لعودة ميان، أخيراً رجع لنازدار وجهها الناصع، إلى وقت متأخر من الليل كانت النساء تزورها وتباركها لعودة أختها وهي بالمقابِل تدعو بالخير والعودة لمفقوديهم، كان الوقت طويلاً بالنسبة للمرأة التي نفد صبرها لتنتظر إلى اليوم التالي، قالت لماذا لا يحضرونها اليوم إلى هنا لماذا الانتظار إلى الغد، إلا أنهم أخبروها بأنها في مكانٍ بعيد والطريق طويل وسيصلون إلى هنا في نهار اليوم التالي.

في الليل وأنا مُلتحفة بالبطانية كنت أحدقُ فيها، كانت جالسة على فراشِها لا يراودها النوم في انتظار عودة ميان، يا ترى هل سيأتي اليوم الذي سيبشرونني بعودة سرمد أيضاً؟ هل سيسعفني الحظ ويعود زوجي، عندها لن أنتظر الليل بطوله، سوف أذهبَ إليه بنفسي، أينما كان المهم أن يعبر هذا

الخط الأحمر المليء بالدمار واللاعودة، هل سأكون سعيدة الحظ مثل نازدار، لقد أصبح من يعود له مفقوديه من سعيدي الحظ، يا له من زمن غريب.

صباح اليوم التالي استيقظت نازدار من فراشها مبكّراً وبدأت تنظف الخيمة وتكنس وترتب الحاجيات وذهبت لتشتري قطعة لحم من القصاب وأخذت تعد الطعام من أجل ميان، كانت الدموع تملأ عينيها وهي تعد الأكل لأختها العائدة، الراجعة من الهلاك من مكان قد انتهكوا فيها روحها وجسدها. كان يدور في خلدها كلام ما وتريد أن تبوحه لي، قالت لي بقلبٍ مسكور وذاتٍ مجروحة لن تندمل أبداً كأنها تريد أن تتوعدني بشيء مهم:

-أرجو منك ألا تسألي ميان أبداً أين كانت وكيف كانت تعيش.. دعيها تعيش حياتها ولا تسأليها عما حصل لها فسوف تجرحها تلك الذكريات.. دعيها تعيش لحظتها الآن، المهم أنها عادت لنا سالمة.

فوعدتها بأن لا أسألها أيّ شيء من ذلك القبيل.

وقفت المرأة على المصطبة بجانبِ باب الإدارة تنتظر قدوم السيارة التي تحمل ميان إليها، كانت عيناها متجهة نحو الباب لا تُفارقها، الباب الذي طالما ننتظر من خلفه المفاجأة، كانت قد طلبت مني أن أبقى في المخيم وأكمل إعداد الطعام بينما هي لم تتحمل البقاء في الخيمة واتجهت نحو باب المُخيم مبكرة. وأنا لم أتحمل المكوث بينما أعد الغداء فقد كان الغداء جاهزاً لذلك حملت رافو معي وتوجهت إلى حيث كانت نازدار تترقب الطريق وهناك نسوة أخريات يقفن إلى جانبها ينتظرن بشغف تلك الموعد الجلي.

انتظرنا طويلاً وبينما هي كانت تذرع الطريق جيئة وذهاباً والقلق يراودها من مجيئها أو لا وسبب تأخيرهم وسؤالهم المتواصل عما الذي أخرهم. أثناء ذلك دخلت مركبة مصفحة إلى المخيم تلحقُها عدد من السيارات بينهم سيارات خاصة للبث المباشر للتلفاز، علمت نازدار بأنهم هم، وقفوا في الساحة الوسطية وترجل منها عدد من الرجال يلبسون بذاتٍ أنيقة وللحظة نزل من المركبة المجاورة رجل يحملُ الكاميرا يعدّها ويفتحها بسرعة ليستعد في تصوير الأحداث في أوانها، عند ذاك خرجت فتاة سمراء نحيفة ذات عيون مدورة من المركبة، لم أميّز ملامحها جيداً كانت شاحبة وذابلة. ندّت من نازدار صرخة عالية وهرعت لتحضن أختها ميان وتقبلها من رأسها وتمسد شعرها أثناء ذلك استمر المصور بتصوير الحدث عن قرّب ويسجل دموع العائلة، بقدر ما أفرحني عودة ميان بقدر ما أغضبني ما رأيته من ذلك المصور والمذيع الذي بدأ يستفسرعن كيفية إعادة الفتاة من يد داعش فشرح لهم الرجل أمام الكاميرا الطريق المتعب والصعب من أجل استرجاع الفتاة من سوريا ومحاولتهم الجادة لإعادة البقية الأخرى من الفتياتِ المختطفِات، كنت أتسائل لماذا كان يجب أن تظهر الفتاة أمام الكاميرة لتعرف الملاء بأنها إحدى المختطفات الإزيديات لماذا لا يراعون شعور وإحساس الفتاة بأن العالم سوف يعرف ماحدث لها، لماذا يجب أن تبرز وجهها؟ هل كلّ ذلك من أجل صفقة إعلامية لمحطتهم بالمقابل يعرف العالم بأسرها بقصتها ومن تكون، أغضبني الموقف سحبت نازدار من

يدها وأخذتها ساحباً إياها مع الفتاة إلى خيمتنا ومن هناك لم أدع أيّ من الكاميرات أن تدخل إلى الخيمة وقد حاولوا جاهدين إلا أنني غضبت عليهم أشد الغضب وطردتهم من أمام الخيمة، إلا أن نازدار خرجت من الخيمة وأخذت تشكر الرجال الذين استردوا لها الفتاة ودعت لهم بالخير لإنجازهم هذه المهمة الكبيرة، دبَ الفرح في قلب هولاء الرجال وهم يرون فرحة نازدار بعودة أختها ثمّ تمنوا لها الخير وغادروا المكان فيما بعد.

بدأ الناس يصلون إلينا من الخيم المجاورة ليباركوا نازدار لعودة ميان، منهم من يدخل إلى الخيمة ليلقوا نظرة إلى تلك المسكينة فتمتلئ عيونهم بالدموع ومنهم من لم يرغب في الولوج لمشاهدت العائدة وفضلوا البقاء في الخارج ثمّ ذهبوا فقد نشدوا الناس أن يخلو المكان حول الخيمة ويوقفون الزيارة لأن الفتاة تعبة وتحتاج إلى الراحة والهدوء من أن يجتمع الناس حولها، لذلك أخلوا المكان بسرعة وترك الناس خيمتنا إلا الأطفال الذين بقوا واقفين أمام الخيمة واجمين لايفقهون ما الذي يجري وما قصة تلك الفتاة.

وأخيراً غادرَ الرجال الذين جلبوا وأعادوا ميان وقد شكرتهم نازدار كثيراً ورحل أصحاب الكاميرا والإعلام وفرغ المكان لنا فقط، جلست بجوار ميان وبدأت أتلمس يديها الناعمتين النحيفتين وأحدق في عينيها التي احمرَتا من البكاء في حضن أختها التي لم تكف من تقبيلها للحظة، كانت الفتاة متمسكة بأختها بشدة وتنادي بأن لا تتركها أبداً بعد اليوم لوحدها وبدأت

تكرر تلك العبارة لمرات عديدة، غمرني الحزن الشديد ولم أتحمل ذلك المشهد وشرعت أجهش بالبكاء بمرارة وأخذت ألعن كلّ من كان السبب في إيذاء هذه الفتاة المسكينة الضعيفة التي لاحول لها ولا قوة ليجعلوها جارية لديهم. أيّ شرائع سماوية تستبيح أن يحيلو البشر ملكاً خاصاً لهم يفعلون بهم ما يشاؤون.

بعد أن بكينا ما أمكننا وجفت دموعنا، قمت وأحضرت الطعام لميان ووضعت الطبق أمامها أمل في أن تأكل منها فقد كانت هزّيلة وهالكة تماماً وبرزت عظام جسدها، لم ترغب في أن تأكل فكل ما كان تهُمها أنها قد وصلت إلى بر الأمان إلى حضن أختها وغير ذلك فلا يهمها، أصرينا عليها أن تاكل رغماً عنها، ثمّ شرعت تأكل بمهل.

عرفتني نازدار بها وأخبرتها بأنني المرأة التي بقيت معها كلّ تِلك الفترة ولم أتركها وهي تعتبرني مثل أخت لها.

كما اتفقنا أنا ونازدار أن لا نتطرق بالحديث في أيّ موضوع يتعلق بما حدث للفتاة سابقاً بيد داعش وتركنا الأمر لها إن كانت تريدُ الكلام في ذلك الشأن أو أنّ تُغلق الموضوع نهائياً إلى الأبد.

[١٩]

لم ننم الليلة على طولِها، فقد كانت الفتاة تفزُ فجاة وتصحو كلّ لحظة من النوم وتصرخ بصوتٍ عالٍ وتتنهد لتستفيق من كابوس كان قد راودها في أحلامها، ذلك الصراخ كان يجفل طفلي رافو كلّ مرّة فيصحو ويبدأ بالبكاء من جديد. لم نكن نعلم ماذا نفعل من أجل تهدئة الفتاة، فكلما تستيقظ من الكابوس تعاود البكاء وترتمي في أحضان أختها، وظلّت نازدار بجانب الفتاة تمسك رأسها وتقبلها لتهدئتها طيلة الليل.

بعد أن قمتُ بإسكات رافو عدة مرات وأعدّتهُ إلى النوم، ذهبت وأحضرت كوب حليب لتشربها ميان عسى ولعلّ تهدئها وتجعلها تنام قليلاً بارتياح، بعد هنيئة عادت إلى النوم أما أنا وأختها فقد أخذنا نهزّ رأسينا أسفاً ونحن نحملق في الفتاة التي كانت تشبه شخصاً مصاباً بالحمى تهذي في نومها وتغمغم بكلمات عجيبة، كانت تذكّر أسماء أشخاص غريبة وتصرخ في نومِها وتطلب النجدة، تهذي باستمرار. أبعدت مكان رافو إلى الطرف الآخر من الخيمة حتّى لا يصاب بالهلع كلّ مرة، وجلست بجوار نازدار، قلت لها بصوت خفيض سوف نأخُذها غداً إلى الطبيب ليكتب لها علاجاً ليهدأ من روعها ويعطي السكينة إلى نفسها وتنام في راحة، وهذا ما فعلناها في صباح اليوم التالي. أخذناها إلى المركز الطبي التابع للمخيم. كان دكتور سردار موجوداً هناك وهو دكتور متطوع يأتي مع دكتورة أجنبية إلى

المستوصف ويجلسون هناك لمساعدة وعلاج مرضى المخيم، كانت المنظمات والحكومة توفر الأدوية للمرضى، عندما شاهدنا دكتور سردار، كأنه كان يعرف ميان مسبقاً قام من مكانه يستقبل مريضه بكل احترام وتودد فاتِحاً لها المجال لتدخل، على ما يبدو أن الطبيب قد شاهد ميان من على التلفاز وتعرف عليها مباشرةً، أبلغ دكتور سردار المرأة الأجنبية عن ميان وعرفها إليها، لحظتها انحنت المرأة لميان برقة وعطف وهي تتكلم باللغة الإنجليزية، مسكت يد ميان وبدأت تلامسها بلطف، كانت متأثرة بما جرى لميان. تكلمت مع الطبيب تطلبُ منه أن يترجم لها كيف هي الآن، فبادرت نازدار:

-أنها ليست على ما يرام.. لم تَنم الليلة الفائتة للحظة تراودها الكوابيس كثيراً وتفز من نومها باستمرار، كنت أنتظر أن تنبلج الصباح لنحضرها إلى هنا لعلّكم تستطيعون مساعدتها.

شرحَ الطبيب للمرأة الأجنبية عما تفوهت به نازدار، فبدأت الطبيبة بفحص ميان التي ظلّت صامتة منكسة الرأس دون كلام والحزن يملأ عينيها الذابلتين. بعدها قالت المرأة للطبيب الذي ترجم لنا:

-إنها مُرهقة جدّاً يبدو أنها عاشت فترة صعبة وعانت كثيراً ومازال تأثير الرهبة في مخيلتها. إنها تحتاج إلى راحة كاملة يجب أن لا يزعجها أحد لفترة إلى أن تستعيد طبيعتها.. سنكتب لها مهدئاً من أجل أن تنام ولا تراودها تلك الأحلام والكوابيس.

بعد أن كتبت لنا الأدوية وأخذناها من الصيدلية عدنا إلى الخيّمة، هناك وجدنا (شمو) خطيب ميان واقفاً في انتظار عودتنا. ما أن رأت ميان خطيبها واقفاً أمامها حتّى أغمي عليها ووقعت أرضاً كأنها لم تتحمل أن يراها وهي على تلك الحالة، حملناها وأدخلناها إلى الخيمة. عادت نازدار إلى البكاء والعويل على أختها أما شمو فقد جلس بجانب ميان وأخذ يبكي هو أيضاً كان على ما يبدو يحب ميان كثيراً وقد صعبَ عليه حالها.

أبلغنا الولد أنه قد عرف بالخبر من التلفاز، فقد ظهروا على التلفاز ليلة البارحة ولذلك جاء اليوم مباشرة من مخيمهم الواقع في المدينة المجاورة، وكان متلهفاً لرؤية حبيبته ميان.

شكرت نازدار مجيء الشاب الذي كان في غاية البهجة لعودة ميان وعلى مقدار فرحته فقد كان متألماً لما جرى للفتاة، إلا أن الولد كان جرّيئاً في مواقفه ورغم ما حدث للفتاة إلا أنه قد عزم على العودة من أجل أخذ خطيبته وإكمال الزواج.

بعد أن استفاقت الفتاة من غيبوبتها بدت صامتة، لم تبُح ولم ترغب في أن تدير وجهها للولد الذي كان يحملق فيها باندهاش، كأنها بما تقصده في تصرفها تطلب منه أن يتركها وشأنها، ظناً بأنها لن تنفعه بعد الآن ولا تصلح أن تكون زوجة له بعد الذي حدث، هزّ شمو رأسه واقترب من الفتاة رويداً وهمس في أذنها بأنه كان يشتاق إليها جدّاً ويفكّر فيها كثيراً وأنها لم تُفارق مخيلته للحظة وقد كان يعيش في قلق متواصل من أجلها وحاول

تقفي أخبارها وانتظار عودتها، وصرح لها بأنه لا يقدر أن يعيش في هذا العالم بدونها وأن ما حدث كان خارج إرادتها وأن حبُّه لها لم يتزحزح قيد أنملة وأنه مصر على أن يتم زواجهما، تلك العاطفة الجياشة التي باح بها الولد ذكرتني بسرمد وبكلماته المليئة بالعاطفة والحب ذلك الإحساس الجميل الذي فقدته منذ زمن أنا في توق إليه الآن، دمعتَ عيناي وأنا أتذكّر ذلك، كان موقفهما واضحاً كلّ واحد يريدُ مصحلة الآخر في أن لا يضحي أحدهما بالآخر، إلا أن موقف شمو وإصراره كان في غاية الشجاعة لا يُقدر بثمن، منع الفتاة أن تستمر في رفضها وترددها، التفت إلى نازدار وطلب منها أن تسمح له بإجراء الزواج بأسرع ما يمكن من أجل أن يأخذها معه، إلا أن نازدار اقترحت قائلة:

-إن الطبيبة أخبرتني بأن ميان تحتاج لفترة من الهدوء تخلد إلى الراحة لذلك دعها تبقى عندي لمدة ومن ثمّ نجري أمور الزواج بعد شهرين. خلال تلك الآونة يمكنك أن تمرّ وتأتي في أيّ وقت تشاء لرؤيتها والخروج معها لتغيير الجو.

كانت صائِبة في قرارِها وخاصة الخروج معها للتنزه ونسيان ما عاشت فيه، هزَّ شمو رأسه موافقاً على هذا الاقتراح، رغم أنه لم يرغب بذلك في داخله.

[٢٠]

من بين صندوقي الصغير الذي جلبته معي، أخرجت صورة سرمد كان قد أهداني إياها بعد يوم من حضوره إلى بيتنا، جاءَ يطلب يدي من عمي صباح بما أنه كان ولي أمري بعد وفات والدي بسبب مرض عضال. يومها لم أكن أعرف كيف أفاتح عمي في مثل هذا الموضوع كنت أخُجل من ذلك، رغم أنه كان يعزيني كثيراً وكانت هناك أواصر قوية تربطنا، يحّن عليّ مثل الوالد الذي افتقدته وكنت أعتبره بمثابة والدي وأكثر من ذلك فقد كان مثل صديق يتعامل معي. فكنت أفاتحه في كلّ أمر مهم، ولا أخفي عنه سراً وقد كان الشخص الوحيد الذي شجعني في أن أكمل دراستي في المعهد لذلك لم أخرج عن طوعِه للحظة، وعندما أذن سرمد وطلب مني أن أبلغ عائلتي بأنه سوف يزورنا من أجل الخطوبة وأنّ عليَّ أن أفاتح الأمر مع والدتي في البدء، فأخبرتها بالأمر، لم تسمع عن سرمد من قبل ولم أخبرها عن ذلك الشاب مطلقاً فيما سبق كنت أخشى مناقشته مثل هذا الموضوع مع والدتي الغاضبة وأخفيت عنها علاقتي بسرمد تماماً إلى أن حان الوقت الذي قرّر سرمد فيه أن يتقدم لزواجي، عنده أصبحت أمام الأمر الواقع ولافرار من أن أخبره بالحقيقة. غضبت مني كثيراً لأنه كان لي علاقة معها وتردّدت كثيراً من زواجي بذلك الشاب وبدأت تسألني الكثير عن سرمد، من أين وكيف تعرفت عليه وأين يعيش الولد وما هي حالتهم المادية وهل سوف

أعيش مع عائلته أم أنه سيقرّر أن نعيش لوحدنا في بيت واحد؟، أخبرت والدتي بأن كلّ تلك الأمور لا تهمني طالما هناك حب يتوسم بيننا فإن تلك الحواجز لا قيمة لها طالما أن الولد محترم وخلوق فهذا أهم من كلّ شيء فلا المال يمنع صاحبه من أن يردعهُ من عمل الشر والخروج من الطريق المستقيم، فاض غضب والدتي حملت ملعقة الطعام وبدأت تضربني بها، لم أمنعها فقد كنت الوحيدة لوالدتي فلا تملك أحداً سواي في هذا الدنيا وهي لا ترغب في أن تسلّمني لأي واحد كما كان وكما أشاء أنا فهي عاشت حياة الفقر مع والدي ولا ترغب في أن تكرر الأمر معي أنا أيضاً وأعاني ما عانَتها وهي تعرف مصلحتي أكثر مما أن أتكلم عنه في الحبّ، ثمّ فكّر بأن الولد يملكُ شهادة وهذا سيفيدنا أن تزوجنا فالرجل يقدر أن يعمل بشهادته فطلبت مني الصبر إلى أن تسأل عن الولد لذلك ماجت وهاجات وذهبت تفكّر وتستفسر عن الولد من خلاِل نساء المنطقة اللواتي يسكنن في محلة بيت سرمد، وبدات تسأل معارفنا عن ذلك الولد، تذهبُ صباحاً وتعود فيما بعد ضجرة وتلقي العباية بعصبيتها المعتادة فتقوم بتعنيفي دون ذكر السبب ومن ثمّ أسألها عما وجدت من تجوالها عن تقصي أخبار الولد، فلا ترد عليّ وتسكت مكّشرة وجهها وقافلة ناحية الأخرى، كان في عينيها حزن من أن تزوجني وتبقى هي وحيدة وعلمت ما تكنها من مشاعر في هذا الأمر فوعدتها بأن أفاتح الأمر مع سرمد من أجل أن تعيش معنا عندما نتزوج، إلا أنّها رفضت ذلك وطلبت منّا أن نسكن بالقرّب منها إن تم

الزواج، فيما بعد وجدَ أن أحد أقاربنا يسكن بالقرّب من منزل سرمد وسألت عنه إلى أن اقتنعت به بعد أن مدّحوه وعرفوا أصله وحُسن سلوكه وسيرته وعائلته، وفي النهاية وبعد إلحاحي وإصراري من الزواج به لذا خضعت لكلامي واستسلمت لقنوطي في القبول بهذه الزيجة، أما ما كان يجب أن يفعلها بعد ذلك هي أن تحاور عمي صباح وتفاتحه بهذا الموضوع.

دعت أمي عمي صباح ذات يوم للحضور إلى منزلنا حيث تكلمت معه بانفراد في الغرفة المجاورة ولكن استرقت السمع وقلبي يشدُ خفقاناً وكأنني قد أقدمت على صنعِ مشكلة كبيرة وأنتظر التأنيب. سمعتُ من خلّف الباب صوت عمي وهو يذكر اسم ولده جاسم مراراً والغضب يتملكه، علمت حينها بأن عمي كان ينوي أن يزوجني لولده، تفاجئتُ كثيراً فلم أكن أعلم بذلك أبداً، طالما اعتبرت جاسم مثل أخ لي ولم يكن هناك من أيّ مودة للحب والعاطفة فيما بيننا. كما أنه كان ينظر إلى كأختٍ له، وبالأحرى لا يعيرني أيّ اهتمام أو مودة تجاهي، فقالت له أمي بأن الفتاة قد كبرت وترعرت معه وأنها تراه مثل أخٍ لها ولا يمكنها الزواج به ليس هو فقط وإنما من أيّ شخص آخر غير ذلكِ الشاب وأنها مصرّة على الزواج بذلكِ الولد كما أنها لا ترغب في أن تفقد ابنتها الوحيدة بهذه السهولة، والأمر ليس بيدها الآن فالفتاة قد اختارت ولا تريد أن تكسر خاطر ابنتها الوحيدة، فهمَ عمي من كلام والدتي بأن الأمر قد وصلَ حده ولا فائِدة من أن يمنع ذلك الزواج لذلك لم يكن منه سوى أن يطلب منها أن تمنحه

بضعة أيام ليسأل عن الولد هو أيضاً ومن ثمّ يردّ علينا بقراره. غادر عمي منزلنا ذلك اليوم دون أن يؤدعني أو أن يلتفت إلي كأنه قد زعل مني وقد حز ذلك الأمر في نفسي طالما كنت أعزه وأعتبره بمرتبة والدي إلا أنني لم أشأ أو حتّى أفكر في يوم من الأيام أن أتزوج من ولدِه جاسم، إلا أن عمي كان كبير العقل وواسع الصدر لا يحمل أيّ ضغينة أو حقد على أحد ولاسيما أنا فقد كان يواسيني ويحاول أن يشعرني بأنه بجانبي ولا أحس بفقدان الأبوة ويعمل من أجل سد ذلك الفراغ في حياتي. كنت أعلم بأن عمي سيرجع ويخبرني بموافقته فأنا أعرف طبيعته فلحسن الحظ أن عمي لم يتأخر من أن يردّ علينا بقرارهِ ويزورنا بعد أيام ويبلغ والدتي بموافقته بعد أن سأل عن الولد وعن عائلته وطلب منّا أن نخبر سرمد لأن يحضر عائلته من أجلِ طلب الزواج. وجرت مراسيم الزواج فيما بعد بسهولة. جاء سرمد مع أهله وخاله إلى منزلنا بحضورِ عمي صباح وبقيّة أفراد عائلتي الصغيرة، جلسَ سرمد كعادته بصمت وحبور وعيناه تجولان خجلاً منكس الرأس. دار حوار طويل بين عمي صباح وخال سرمد الذي تعرف عليه جيداً وعلم بأنه كان من أصدقائه القدماء، ثمّ في النهاية تمت الموافقة على الزواج والإعداد للخطوبة في أقرب وقت.

[٢١]

صارَ جلَّ اهتمامنا وتركيزنا هو كيف نعتني بصحةِ ميان ونعيد لها رونقها وبسمتها التي فقدتها والتي تصعب أن تعود إليها بسهولة وإن حاولنا استرجاعها عنوة فإنها لربما فقدتها إلى الأبد ولن تعود لها تلك الحياة الطبيعية التي كانت عليها طالما هناك جرّح في ماضيها فسوف يلازمها طوال حياتها.

كان شمو يزورنا كثيراً، ولحُسن حظه فقد وجدَ صديقاً قريباً له في مخيمنا فكان يبيت لديه عندما يحل المساء ولا يستطع العودة إلى مخيمهم. يزورُ ميان ويجلس معها خارج الخيّمة، ويخرجان معاً إلى الربوة المجاورة ويتنزهان، وقد حاول شمو أن يتفادى أيّ سؤال قد يضفي به إلى ما يتعلق بما حدث لها، كنت أرى بأن الفتاة هي أيضاً لا تحب الدخول والتكلم في هذا الشأن ولم نَضغط أو نشير لها ذات يوم من أجل أن تحاورنا في هذا الأمر البتة، فكلُ ما جرى لها لم يكن لها من يد، ذات يوم انفردت نازدار بشمو وتحدّثت معه بذلك الشأن حيث سمعتها من بعيد تقول له:

-كما تعلم بعد أشهر ستكون ميان زوجتك وسوف تنتقل للعيش معكم في مخيمكم، هناك ستكون ميان تحت مسؤوليتك كما تعلم ماحدث لها من انهيار في الحالة النفسية فإنها لا تحتاج إلى أيّ شخص يذكرها بالماضي، أرجو أن تخبر والدتك وكل أفراد عائلتك بأن لاينقاشوها في هذا الأمر فما

حصل قد انتهى واندثر ولا يلزم أعادت تذكيرها، ما أود أن أقولها يجب أن تفهم والدتك بأنها لا يجوز في أيّ حالة غضب قد تحدث بين الحماة والعروسة عن أيّ قضية بأن ترد وترمي تلك الذكرى في وجهها، وإلا فإنني لن أغفر لا لك ولا لأي أحد إن وقع ذلك ذات يوم.

هزّ شمو رأسه بالإيجاب وكأنه قد علم ما تقصدها:

-أوعدك بأن ذلك لن يحدث أبداً، إن والدتي تدرك الأمر جيداً وهي تحب ميان وتعرف وضعها جيداً. لا تقلقي من ذلك أبداً.

كانت نازدار خائفة من مستقبل أختها لأنها سوف تنتقل للعيش مع عائلة أخرى لا تعرف عنهم الكثير والأجدر بها أن تنذرهم بمراعات المرأة والاعتناء بها قبل موعد الزواج.

ذات يوم جاءَ شمو يحمل إلينا نبأ جديداً من المخيم عندما رآني سألني باهتمام وعينيه الصغيرتين المليئتين بالحزن قد أبرقتا:

-لقد سمعت من إدراةِ المخيم بأنهم سيفتحون مدرسة مؤقتة للنازحين في المخيم للأطفال الذين انقطعوا عن الدراسة ليواصلوا دراستهم.

نظرت إليه باستغراب وأردفت قائلة:

-خبر جيد ومفرح.. أن يعود التلاميذ إلى دراستِهم التي انقطعوا عنها.

فقد كان من المفضل أن يستمر الأطفال في الدراسة من الانقطاع والتفكير فهم لا يملكون في هذه الحياة سوى الدراسة فلا شيء مهم يلهيهم. قلت له:

-لم يزل رافو صغيراً من أجل إرساله إلى المدرسة.

إلا أنني لم أستوعب لماذا يوجه لي شمو السؤال بالتحديد. فشاهد الحـيرة في عينيّ ليفسر لي ما يقصده:

- لم أقصد زردشت... لقد سـمعت مـن نـازدار بأنـك أكملـت الدراسـة في معهد المعلمين..

- نعم أكملت دراسة اللغة العربية.

- لقد أخبروني بأنهم في حاجة إلى المعلمين من المخيم من أجل تدريس الطلاب.. أظن بأنها فرصة جيدة من أجل أن تنضمي للكادر التدريسي وسوف يكون لك راتب شهري. ستفيدك وستعولك على ما أنت عليه طالما أنك وحيدة ليس معك أحد ليعيل عليك ويساعدك.

اندهشت لهذا الخبر. حقاً كانت فكرة حسنة، إنها لفرصة جيدة أن أجد عملاً، لمَ لا وأنا قد أكملت الدراسة وتخرجت كمعلمة إلا أنها لم تحن لي الفرصة أن أحصل على الوظيفة في مجال التدريس، كم كان سرمد يرغبُ في أن أتعين في إحدى المدارس الحكومية، ها هو الآن العمل يأتي بنفسه إلي، لو كان سرمد معي الآن كان ليدفعني ويطلب مني العمل كمعلمة، كنت في حاجة ماسة للمال من أجل أن أشتري الملابس للطفل وحاجيات أخرى للخيمة ولا ندري كم من المُدة سيطول بقاؤنا ومكوثنا هنا. هزّزت رأسي بالموافقة، وقد دفعتني نازدار لأن أسجل في تلك المدرسة، ووعدتني بأنها ستعتني برافو في فترة غيابي.

ذهبت مع شمو إلى الإدارة وأخبرتهم بمؤهلاتي الدراسية وأنني على استعداد للعمل إن كانوا في حاجة إلى كادر تعليمي، أعجبهم الأمر فقد كانوا يرغبون بأن يكون المعلمين من ضمن سكان المخيم نفسه بدلاً من أن يستعينوا بمعلمين من خارج المخيم والتي سيتكلف عليهم توفير أجور النقل لهم كلّ يوم من المدينة إلى المخيم، وافقوا على تعييني في المدرسة. فيما بعد قالت لي نازدار:

-إن هذا سيساعدك ولو قليلاً من أن تبتعدي قليلاً عن تفكيرك الطويل بزوجك، ستكونين مشغولة بالتلاميذ والتدريس.

لا أظن بأن كلامها صحيحاً، فسرمد كالنجمة في ليالي، كالماء ينخرُ من كلّ منفذ إلى ذهني، يتسرب بلا توقف ولن يفارقني حتّى وإن كنت مشغولة مع التلاميذ. لقد تم الاتفاق على أن يبنوا المدرسة بموقعٍ قريب مجاور للساحة التي تقع أمام المخيم في المقدمة، جلبوا كابينات جديدة وصفوها واحدة بجوار الآخر وجعلوا من كلّ كابينة كصف من الصفوف الدراسية ومُلئِت بالمستلزمات من الكراسي والمقاعد وعلقوا السبورة على الحائِط.

قابلت المدير الجديد للمدرسة وقد كان من أهل مدينتا أيضاً وحضرَ عدد آخر من المعلمين وانضموا لتعليم أبناء المخيم الذين انقطعوا عن الدراسة. بعد أيام بدأ الدوام وباشر الطلاب بالحضور إلى المدرسة وتم توزيع الملازم والكتب والقرطاسيات عليهم مع الحقائب والدفاتر وكل ما يحتاجون إليه،

ذلك الأمر أفرح سكان المخيم جميعهم فقد رغبوا بأن يستمر أبناؤهم في التعليم من أن تفوتهم سنوات على الدراسة.

لم تكن عملية التعليم صعبة بالنسبة لي، إلا أنني في البداية واجهت صعوبة في التعامل مع تلاميذ بمستوى الابتدائية، إلا أنني تغلبت على تلك الأمور بعد أيام وقد كان المدير راضياً في أدائي، أذهب كلّ يوم إلى المدرسة بعد أن تركت رافو عند نازدار، وقد أخبرتني نازدار بأن رافو كان يبكي كثيراً من أجلي إلا أنه فيما بعد اعتادت على غيابي، أخذت حصتي في تدريس منهاج اللغة العربية، والطلاب كانوا فرحين لأنهم يرتدون ملابس المدرسة من جديد.

رغم تغير الأجواء وإضفاء شيء جديد في حياتي إلا أنه كان هناك ما يشغلني أثناء التدريس وهي تلك الشاحِنات التي تدخل إلى الساحة في بعض الأحيان محملة باللاجئين الجدد الذين قدموا من المواقع التي كانت تحت هيمنة داعش، كانت نافذة المدرسة تشرف على ساحة المخيم وكنت أرى كلّ مركبة قادمة جديدة وحالما تصل الشاحنات كنت أتوقف عن الكلام وأضع الطباشير جانباً وأتّجه مسرعة إلى النافذة والكتاب في يدي وأبدأ بإلقاء النظر في القادمين وأنا أحبس أنفاسي ملهوفة أترقب وأدعو أن يكون سرمد بين القادمين. تلك العملية كانت تتكرر في اليوم عدة مرات، وقد لاحظ التلاميذ ذلك الأمر فكلما تأتي حافلة يسارعون بإلقاء الكتب هم أيضاً ويحملقون في الحافلات معي وهم لا يعرفون ماسبب اهتمامي

بالقادمين ولا يعرفون أن في عينيّ مازال بريق انتظار ظهور زوجي وأمل للقياه.

[٢٢]

بعد أسابيع من عودة ميان، زارتنا امرأة أجنبية نحيفة وشقراء البشرة مليئة بالبثور، كانت من منظمة إنسانية، استأذنت منّا حتّى تدخل فسمحت لها نازدار، عرفنا من البداية أنها جاءت من أجل ميان، كانت تصطحبها فتاة أخرى علمنا فيما بعد أنها أيزيدية تعمل معها كمترجمة، قالت الفتاة بأنهما يمثلان منظمة إنسانية تبغي توثيق أحداث المختطفات من الأيزيديات لجمع الأدلة وتسجيلها في الأمم المتحدة وإبرازها على أن ما جرت علينا هي عملية إبادة جماعية (جينوسايد) وستحمينا تلك القرارات في المستقبل. لم تجرؤ نازدار أن تطلب من ميان أن تتكلم وتحكي لهما ما جرت لها، وإنما أناطت ذلك القرار لميان نفسها أن كانت ترغب في ذلك أو لا، فيما بعد وجدنا فيها رغبة للكلام من أجل أن تطلق ما هو مكنون في داخلها وترتاح منها وكأنه حمل ثقيل يجثم على صدرها. تكلمت المترجمة بهدوء مع ميان تناشدها أن تحكي لهم ما جرى حتّى توثقها، فوافقت وبدأت تسرد لها ما حدث وعيناها تملؤها الدموع، تبكي حينا ومن ثمّ تستمر في الكلام، لم تتحمل نازدار ما كانت تبوح به أختها، هرعت إلى الخارج وهي تجهش بالبكاء.

كانت ميان في منزل خالها تحديداً يوم دخل داعش إلى سنجار أما نازدار فقد كانت في كوجو. عند انتشار خبر دخول داعش هربت ميان مع عائلة

خالها ناحية الجبل مع بقيّة العوائل الفارة وفي الطريق بالقرّب من حقول القمح وصلهم داعش وطوقوهم من جميع الجهات ولم يسمحوا لهم الهرب، فاعتقلوا الرجال ثمّ أعدموهم، قتلوا خالها وابن خالها، فيما وضعوا النساء والأطفال في مركبات نقلتهم إلى مدينة البعاج تبعد ساعة عن سنجار حيث بقوا لساعتين تقريباً، ومن هناك نقلوا ميان مع النساء والأطفال إلى مدينة الموصل التي كانت تحت سيطرة التنظيم.

في الموصل، نقلهم المسلحون إلى قصر كبير جداً ووضعوهم في قاعة كبيرة، بقت ميان مع زوجة خالها التي كانت لا تكف عن البكاء على زوجها وابنها اللذان قتلا، وبعد أسبوع فصلوا الفتيات والشابات دون سن العشرين عن المتزوجات واللواتي في العشرينيات والثلاثينيات وفصلوا ميان عن زوجة خالها وهي لا تعرف بعد ذلك ماذا حدث لزوجة خالها إلى حد الآن. كانوا يبغون توزيع الفتيات على عناصر داعش، وبعد أيام فصلوا كذلك الأطفال فوق التسعة أعوام عن أمّهاتهم بحجة أنهم يريدون تدريسهم تعاليم الدين الإسلامي والقرآن.

ذات يوم يزورهم زعيم المسلحين ويبلغهن بأن الوقت قد حان ليدخلن الإسلام وأن يتم تزويجهن لعناصر داعش، فكانوا يقولون:

"أنتم الإيزيديون كفار، وعليكم ترديد هذه الكلمات وراء القائد".

تم جمعهم كلهم في مكان واحد وجعلوهم يردّدون وراءه. وبعد تلاوة الشهادة، قال لهم لقد اعتنقتم الآن ديننا وهو الدين الصحيح، لم يكن يجرؤن على

الامتناع عن ترديد الشهادة أرغموهم على تلاوة القرآن وبدأن يصلين ببطء. ويتصرفن كالمثلات. فما كان لهن سوى الرضوخ وأعلنّ اعتناقهن الإسلام.

بعد ذلك كان القائد يمر عليهن مرتين في اليوم ويأخذ معه عدداً من الفتيات ويوزعهن على المسلحين الذين يصطحبونهن إلى منازلهم، كانت هناك الكثير من الفتيات مع ميان. فحين كانوا يأتون لانتقائهن، كانوا يمتنعن فيشدونهن بعيداً. فتبكي الفتيات ويفقدن الوعي، فيضطرون لأخذهن بالقوة. بعد فترة أخذوا ميان مع مجموعة أخرى من الشابات إلى تلعفر وبقيت هناك قرابة شهر ومن ثمّ أخذوها إلى سوريا إلى منزل يؤوي أخريات من الإيزيديات المختطفات.

في ذلك المنزل كانوا يأتون رجال يلبسون الدشداشة ولهم لحى وشعور طويلة لانتقائهن، وكانوا يأمروهن بالوقوف ثمّ يفحصون أجسادهن. كانوا يأمرونهن بإظهار شعورهن ويضربون الفتيات أحياناً إذا رفضن.

قالت ميان بأن سبعة من مقاتلي داعش امتلكوها أثناء أسرها، واغتصبها أربعة منهم في عدة مناسبات، أحياناً كانت تباع وأحياناً ما توهب كهدية، وكان الأخير الأكثر شراسة، كانوا يربطون يديّها وساقيّها. وكشفت بأنها وصديقتها أجبرتا على العمل كخادمتين وأن المسلحين كانوا يعتدون عليهما يومياً، ولم يسمح لهما بالأكل إلا وجبة واحدة في اليوم وشرب الماء مرات قليلة.

ثم حكت ميان كيف أنها أرادت الانتحار ذات مرّة، فلم تتحمل ما هي عليها. ذات يوم يطلبون منها الدخول إلى الحمام لتستحم، دخلت وفتحت الصنبور، ووقفت على مقعد حتّى أخذ سلك توصيل الإضاءة لتصعق به نفسها، لكن لم تكن هناك كهرباء. وبعد أن أدركوا مافعلت ضربوها بقوة، تورمت عيناها وأزرقت ذراعاها. قيدوا يديها إلى الحوض ومزقوا ثيابها بسكين وغسلوها عنوة. ثمّ أخرجوها من الحمام وأدخلوا صديقتها واغتصبوها فيما بعد في الغرفة أمامها.

وبعد خمسة أشهر في مدينة الرقة، اغتنمت ميان وصديقتها فرصةغياب المسلح الذي كان يحتجزهما، أبلغهما بأنه سيذهب للقتال ولن يعود إلا في اليوم التالي، ونجحتا في كسر الباب والفرار من المنزل مرتديتين عباءتين أخفيتا وجهيهما وهويتيهما الحقيقية وهربتا من المنزل إلى مكان بعيد وهناك في أحد الأسواق تعرفتا على عجوز وناشدتا منه مساعدتهما، كان العجوز طيباً حيث اتصل بمجموعة من الخيرين واستطاعوا إنقاذهما وإعادتهما إلى العراق.

[٢٣]

بعد مدة من عودة ميان إلينا، كان شمو يرتادنا ويذكرُ نازدار ويطلب منها أن لا تؤخر زواجهما إلى فترة أخرى، كانت نازدار ضجرة من ذلك الأمر وكانت لا ترغب في مفارقة أختها ميان فتبحث عن أيّ عذر حتّى تؤجلها باستمرار، كان شمو قد جلب معه باقة من زهور النرجس لميان اقتطفها من الربوع المنتشرة، رأت نازدار الزهور في يده فقامت من مكانها فرحة وهي تقول لشمو:

-لقد تذكّرت نحن في شهر نيسان؟

استغرب شمو مما قالته، وسألها بتوجس:

-وماذا في ذلك؟

فردت عليه نازدار وعيناها قد فتحتا وسعهما:

-وماذا في ذلك؟!.. إنه الشهر الذي لا يجوز الزواج فيه.

انصدم شمو وتلملم في مكانه، لقد كانت على حق، فلا نقيم حفل الزواج في شهر نيسان فهذا الشهر في معتقدنا لا يتقبّل الزواج لأنه شهر ربيع وهي بحد ذاتها عروسة ولا يجب أن تكون هناك من عروسة غيرها. نكسَ شمو رأسهُ وخرج من الخيّمة دون كلام يملؤه الحزن. أحزنني ما رأيته في الولد وقلت لنازدار:

-لا يجوز أن ترد الولد أكثر من ذلك، إنه لا يرغب أن يتأخر أكثر.

عرفت نازدار إنها قد قست كثيراً على الولد، فرّق قلبها وقامت إلى الخارج وقالت لشمو بصوت عالٍ:

-شمو بعد نيسان أحضر عائلتك للزواج مباشرة.

ذهب شمو الذي كان يجلب لنا الأخبار ويمدنا بآخر الأحداث وبقينا لوحدنا نرنوا إلى بعضنا وكأننا في وادٍ منعزل لا نعرف ماذا يجري خلّف الأسوار، لذلك بعد أن استلمت أول راتبي من وظيفتي كمعلمة في مدرسة المخيم الجديدة قرّرت أن أشتري تلفازاً لمعرفة أخبار مدينتا وما هي آخر المستجدات مع حرب ضد داعش والعمليات التي تشنها التحالف الدولي على داعش بطائراتها المتطورة وكذلك أن نبدد مللنا في الخيّمة بمشاهدة التلفاز وأن تجد نازدار مع ميان ما تتنفسان بها من انعزالهما.

عرضَ عليّ أستاذ مجيد أكرم المساعدة، وهو معلم معنا في نفس المدرسة، وأبلغني بأنه ينوي زيارة المدينة وهناك يستطيع مساعدتي في شراء تلفاز لي ويحضره معه، شكرته على مساعدته، فقد كان طيباً معي ويرغب في مساعدتي كثيراً، فأعطيته المال الذي أخذه بسرور، وبعد يومين جاء إلينا وهو يحمل التلفاز وقام بنفسه بتأسيسها ونصب الصحن وربطه بالهوائي. كانت معونته التي قدمها لي في غاية الأهمية، عندما انتهى من شد الصحن رأى رافو ممسد رأسه وسألني:

-ما أخبار والده، هل هناك من جديد؟

استغربت من استفساره، رددت عليه:

-لا للأسف لحد الآن لا أعرف عن مصيره شيئاً.

هزَّ رأسه دون أن يعلق مرّة أخرى على الموضوع، ثمّ أردف:

-رجاءً أيّ شيء احتجت إليه لا تتردي وتطلبيه.

شكرته ودعوت في قلبي أن لا أقع في ظروف أستدعي فيه مساعدة أيّ رجل، غادر المخيم وفي وجهه ابتسامة واسعة، كانت نازدار تحدّق فيه بنظرات تحمل الشكوك في طياتها، إلا أنها لم تخبرني بما تفكر في داخلها تجاهه، فقالت لي بضجر:

-إن هذا الرجل لا يساعدك مجاناً.. إن في ذاته نية أخرى، لربما لا تعرفينه بسهولة.

لم أفهَم مقصدها جيداً، سألتها عما تفكر به، فردت علي:

-هل الرجل متزوج؟

استغربت من سؤالها وما تعنيها فقلت لها:

-لا.. لماذا؟

فقالت وكأنها تطلقها في وجهي كاملة دون تردد:

-لربما يفكر أن يتزوجك.

توسعت عيناي، وتسمر الدم في عروقي، ردَدت عليها بذات الطريقة التي تكلم فيها:

-إنك مجنونة.. بماذا تفكرين.. إن الرجل قدم لنا مساعدة وأنت تظنين به سوءً... (كنت أهزّ رأسي آسفة وأسناني تصطك مع بعض) ثمّ لأقول لك شيئاً واجعليها مقولة ثابتة في دماغك الصغير، لن أتزوج بعد سرمد أيّ أحد.

فيما بعد لم أهتم لأقوالها وهلوستها أحسست بأنها قد أصابها الجنون وهي عانس، ابتعدت عنها فكلّ ما كان يشدني هو التلفاز الجديد، بدأنا نستمع إلى الأخبار بتسلسل لا يفوتني أيّ خبر دون أن أنصت إليه، أنتقل من قناة إلى قناة، كلّ واحدة تنقل الخبر بشكل مختلف بما يملي مزاجها وسياستها، إلا أنها بشكل عام كانت الأخبار مكتظة بالمعارك والقتال وهجوم طائرات التحالف بضراوة ومقاومة داعش بقتل أنفسهم وهم في اندحار مستمر وانحسار في الأراضي التي كانوا يسيطرون عليها سابقاً والقوات تحرر وتستعيد المناطق المحتلة بمساعدة طائرات التحالف الدولي، كانت المعارك في سنجار على أشدها ومن بعيد يتم تصوير الطائرات وهي تقصف بشدة أوكار داعش المستخبين بين المنازل في مختلف المدن التي احتلتها، ويظهر من الصور التي تسجل لحظة رمي القنابل وهي تقع وتنشطر عليهم وتقتل مجموعة منهم ويفر الباقون.

كنت قلقة وأفكر في سرمد كثيراً كلّما كنت أنظر إلى تلك الطائرات، أخشى أن يكون مختبئاً أو موجوداً في إحدى تلك المنازل التي تم قصفها، أن إمكانية البقاء حياً تحت كلّ تلك الصواريخ التي تمطر على المدينة كسيل جارف فإنها ضعيفة جداً، كنت جزعة للغاية وأدعو الله أن يحميه، هذا إذا

لم يزل حياً مع كلّ تلك الهجمات الشرسة، كنت أدعـو أن يكـون في مـكان بعيد عن تلك الصواريخ الهائجة.

ذكر في إحدى المحطات أن الطائرات قد قصفت منطقتنا التي يقع فيها منزلنا في سنجار، وشاهدت المنازل وهي تصّور من بعيد كيف أصبحت خراباً وغدت أنقاضاً مع التراب، انهار الكثير من المساكن، وداعش قد حفر الكثير من جدران المنازل لينتقل من مكان إلى آخر بسهولة للهروب من هجمات الطائرات. فكرت في بيتنا الذي يقع في وسط شارع طويل تحذوه المنازل من جميع الجهات وبعض المحال، ياترى ماذا حصل له، هل وقعَ تحت ذلك القصف، هل استغله داعش للاختباء فيه، لربما أن الطائرات قد قصفته ولا سيما فإنه يقع في وسط ذلك الفرع، ولا مفر من أن داعش سوف يستغل ذلك البيت، انتابني القلق والحزن على بيتنا، أحسست بأنني فقدت الآن كلّ ما أملك في هذه الحياة، زوجي والآن منزلنا قد خسرته، لكم تعبنا من أجل بنائه وعملنا بكد حتى وضعنا طابوقة فوق الأخرى، وفر سرمد كلّ دينار من راتبه الذي يتقاضاه كلّ شهر من أجل جمع تكاليف نفقة البناء وقد استغرق ذلك عدة سنوات ثمّ بدأنا بالبناء وقد كنا نعمل بجهد، نعمل سوية في تهيئة الطابوق ورش البناء والإسمنت، تعبنا وبذلنا كلّ جهدنا إلى أن أنجزناه، كان سرمد يمدني بالقوة ويشد من عزمي في مواصلة العمل، كانت أمي سعيدة لأننا نفذنا طلبها وبنينا بيتنا بالقرّب من منزلها، إلا أنها للأسف لم تر المنزل كاملاً فقد توفيت وغادرتنا

قبل إنهائه، حلمت ذات يوم بأنني أبني منزلاً عالياً ولازلت أتذكّر ذلك الحلم وصورة الحائط المنحني، وصباح يوم التالي حكيت الحلم لوالدتي، تنهدت بعمق وملأتها الحزن ثمّ سكتت عن الكلام دون أن تبلغني بالحلم، وبعد أن توفت بعد شهر من ذلك الحلم، زارتنا امرأة حكيمة من لالش في مجلس العزاء وبدأت تفسر لنا الأحلام التي تراودنا إحداها كانت حاملاً وقالت بأنها رأت امرأة حزينة في قيدها فأبلغتها بأنها سوف تلد بنتاً وتلك ماحدث حقاً فيما بعد، وأخرى قالت لها بأنها كانت تعجن الطين فهزّت المرأة رأسها حزناً بأنها نذير شوم، فانتهزت أنا الفرصة وسألتها عن ذلك الحلم فقالت مستوضحة (أن من يبني بناء فإنه دليل وفاة أحد أقرباء الباني)، تفاجأت وتذكّرت حزن والدتي عندما أبلغتها بالحلم... وتلك ما حدثت فيما بعد لقد توفت والدتي.

لم نسعد بالمنزل كثيراً ولم نرتَح ونهنأ فيه كثيراً، وكأن الذي بنيناه كان مشؤوماً، فلم نكد ننتهي من البناء ونرتاح من مجهودنا حتّى وردنا أخبار دخول داعش إلى موصل وثم اختفى زوجي في تلك المدينة وها هو قد انتهى كلّ شيء وضاع المنزل الذي كان يحوي حبنا، تهدم وضاع من في داخلها إلا أن حبنا لن يهدمه أيّ حروب.

[٢٤]

كنت مشغولة بالكتابة على السبورة والطلاب جالسين بهدوء، التفت للحظة وأطلقت نظري نحو الخارج من خلال النافذة وإذا بعيني تقع على شخص مألوف قد رأيته سابقاً وهو يرتدي سترته الخاصة بالصحفيين، أمعنت النظر واقتربت من النافذة وإذا به الصحفي دلشاد عزيز يتجه نحو إدارة المدرسة. في بادئ الأمر ظننت بأن الرجل قد جاء يبحث عنّي ليزودني بآخر الأخبار عن سرمد، توسعت عيناي وازدادت نبضات قلبي، لعلّ أمراً جديداً قد ورد من الموصل. كان علي أن أغادر الصف لأجل أن أراه وأسلم عليه، طلبت من إحدى الطالبات أن تقف كمراقبة على التلاميذ لحين عودتي. توجسي حمل قدمي للسير سريعاً نحو قاعة الإدارة. كان السيّد دلشاد جالساً على الأريكة في غرفة المدير ويتحدّث معه وحينما شاهدني تملكه الدهشة كثيراً، كانت مفاجأة غير متوقعة قام من مكانه يحييني، دخلت إلى الغرفة بعد أن استأذنت من المدير، كان المدير مستغرباً لقدومي المفاجيء ومغادرتي الحصة قبل موعد انتهائها ولم يفهم سبّب حضوري لمقابلة الرجل، فأوضحت له بأن الرجل قد حاول سابقاً أن يجد شيئاً عن أخبار زوجي.. طأطأ رأسه قليلاً ثمّ أردف:

-السيّد دلشاد قدم إلى هنا لإعداد تقرير صحفي عن مدرستنا، وبما أنك تعرفينه فأود أنك تساعدينه في القيام بجولة في المدرسة وتريه الصفوف فهو يود مقابلة بعض الطلاب.

كان المدير مشغولاً بأوراقه لم يكن لديه مجال لمرافقة الرجل من أجل إجراء تلك المقابلة، بينت له استعدادي وسروري لتقديم المساعدة.

خرجنا سوية إلى الصف، انبهر الرجل من وجودي في هذه المدرسة، أبلغته بأنني قد أكملت معهد المعلمين في حينه وأنني الآن أعمل كمعلمة في هذه المدرسة، أفرحه الأمر للغاية كأنه اكتشف شيئاً في بالغ الأهمية، قال بغبطة:

-لم أكن أعلم بأنك معلمة وأكملت الدراسة، لقد أسعدني أنك وجدتي لنفسك وظيفة.. أتمنى لك كلّ الخير.

شكرته لطيبة قلبه، ثمّ لمّحت له متسائلة إن كان هناك أي خبر عن سرمد إلا أنه هزّ رأسه بالنفي بأنه لم يصل إلى أيّ خيط يؤدي إلى معرفة مكان زوجي، وأردف قائلاً:

-لقد استفسرت من أكثر من شخص عن زوجك، وطلبت منهم الاهتمام بالموضوع، ولم يقصر الأصدقاء في ذلك، فهم بحثوا في كلّ مكان، للأسف لم يجدوا له أيّ أثر. نتصّور بأنه لربما يخبئ نفسه في منزل ما أو في مكان ما، حتّى لا يعرف عنه أحد. لا أعلم فكل محاولتنا لم تنفع في العثور عليه، رغم أن أحد أصدقائي وقع في محنة مع أحد رجال داعش عندما سأل عن

مكان الأيزيديين فاستشاط الرجل غضباً وسأله عما يريده منهم، وقد أفلت منهم بأعجوبة.

لا أعرف شيئاً، هل أن سرمد قد خبأ نفسه فعلاً في مكان ما، أم أنه قد غـيّر هيئته وجنسيته وحقيقته، فعلى هويته مذكور بأنه مـن الديانـة الأيزيديـة، لربما إن الحالة اضطرته إلى أن يغير هويته من أجل البقـاء حيـاً ليسـتطيع العودة سالماً.

توجهنا إلى شعبتي حيث التلاميذ، كانت المراقبة لم تزل واقفة على الطلاب الذين ما أن شاهدوني سكتوا والتزموا الصمت، كان الرجل فرحاً بوجود هذا العدد من التلاميذ، ومواصلتهم الدراسة بعد انقطاعهم عنها بسبب النزوح. بعد أن استأذن مني بدأ يسأل الطلاب عن دراستهم وكيف تجري الأمور معهم وهل أن المنظمات توفر لهم متطلباتهم وكيف هي ظروفهم ومعيشتهم وحياتهم اليومية في المخيم وماهي حاجتهم، دام الحوار وقت طويل استفسر فيها مع مجموعة من التلاميذ وفي يده التسجيل الصوتي، ثمّ سأل من التلاميذ إن كان هناك من أحد كان تحت قبضة داعش وعاد إلى هنا، رفع أحدهم يده كان يدعّى (أريان) كان نحيفاً وقد برزت عظام وجهه، اقترب منه دلشاد وبدأ يستفسر منه عما جرى لهم وكيف وقعوا بيد داعش وماذا كان يفعلون. سأل الصبي:

- كيف وقعتم بيد داعش؟

- كنا في طريقنا إلى الجبل مع بقيّة الناس وحاصرنا داعش.

- من كان معك؟

- كنا أنا وأمي ووالدي الذي قتلوه فيما بعد.

- كيف عرفت بأنهم قتلوه؟

- لقد أخذهم رجال داعش وسمعنا الطلقات وهم يقتلون الرجال.

- إلى أين أخذوكم رجال داعش؟

- أخذونا إلى تلعفر وبقينا هناك في قاعة لوحدنا ومن هناك أخذونا إلى سوريا.

- هل كنت مع والدتك أم فصلوك عنها؟

- كنت مع والدتي، أخذونا إلى سوريا. هناك اشترانا رجل مسلح ذو لحية طويلة يتكلم الأجنبية.

- وماذا كنتم تفعلون؟

- كنا نصنع الصواريخ للمسلح كان يأتي بالمواد الكيمياوية ونخلطها معاً ونعد الصواريخ له.

- هل كان يضربك الرجل؟

- نعم إذا لم أكن أطعه وأفعل له مايريده كان يضربني بشدة، وذات يوم ضربني بالصاعق الكهربائي. وأجبرني على قراءة وحفظ القرآن، وإذا لم أنصت له كان يقطع علينا الأكل لذلك اليوم.

- هل كنتم تخرجون من المنزل؟

- لا .. كان يحجزنا ولا يسمح لنا بالخروج.

- كيف هربتم؟

- هربنا مع الجيران الذين كانوا بجوارنا وساعدونا في الهروب.

- كيف كان يتعامل الرجل مع والدتك؟

- أمي كانت تبكي دائماً ويأمرها المسلح بالكف عن البكاء وكان يضربني بشدة حتّى تسكت أمي.

حضنت الولد وقبلته من رأسه وقلت له:

-أنت بطل يا أريان.

بعد أن أنهى السيّد دلشاد التسجيل وكتابة ما يحتاج إليه لمقالته، التفت إليّ وقد برقت في فكره خاطرة غريبة، حيث قال:

-لقد خطرت في بالي فكرة مهمة وجديدة.

هزّزت رأسي بانتظار أن يبوح بها، حرّك قلمه قائلاً:

-لماذا لا تكتبين رواية؟

انخفض بؤبؤ عينيّ مستفسرة باستغراب:

- أكتب رواية؟

- نعم.. لماذا لا فأنت متعلمة وخريجة معهد، يمكنك أن تكتبي ما تشائين.

- وعن ماذا أكتب؟

- اكتبي عن حياتك، عن وضعك الحالي وبماذا تفكرين وما قد حل بك.

- لكنني لم أكتب سابقاً أيّ شيء.. فكيف لي أنا لم أمارس الكتابة الآن.

- اكتبي كما لو أنك تكتبين مذكراتك.

أعجبتني الفكرة وراقت لي، طالما كنت أفكر أن أعمل شيئاً له ذا معنى في حياتي. وافقت على الموضوع، فقال لي وهو يودعني:

-سوف أزورك بعد فترة لأرى مسودتك وماذا كتبتِ.

عدت ذلك اليوم إلى الخيمة وفي مخيلتي الكثير من الأفكار التي أرغب في كتابتها وسردها، إن ما عشناه من ظروف صعبة وما عانيناه من مشقة ونزوح وهروب ليس من اليسير أن تكتب على الورق بهذه البساطة وتذكّر بسهولة فما يختبئ في دهاليز ذاتنا نحن النازحون له أمر من الموت نفسه ومن الأفضل أن لا تطمر في وادي النسيان كلّ تلك الأحداث يجب أن توثق وتذكّر للأجيال القادمة ليعرفوا ما مرّ بنا من المعانات، أمسكت القلم والورق وبدأت أسطر الأحداث من البداية، طالما أن كتابة السيرة تحتاج إلى وقت طويل والتأني في الكتابة، سأكتب الأحداث بتسلسل وأخرج كلّ ماهو مخبأ في جوارحي على الورق وفكرت أن يكون بطل قصتي زوجي الذي سيكون محور قصتي واشتياقي له وما يدور في خلدي كلّ تلك الفترة من الانتظار لعودته وحبي وعشقي له وذكرياتنا معاً.

[٢٥]

بعد انتهاء شهر نيسان، قدمَ شمو إلى خيمتنا لرؤية ميان وقد أبلغنا بأنه قد جهز كلّ أمور الزواج وطلب من نازدار أن لا تختلق له حجة أخرى وتؤخر زواجهما أكثر من اللازم، فابتسمت ووافقت على أن تُقام الحفلة وهي تعز عليها مفارقة أختها الوحيدة، كانت تمعن النظر في ميان وتلتفت إلي في حينها. فكرت في أمر ميان وكيف ستكون حياتها الزوجية في البداية وهي بعيدة عن أختها وقد عانت ما عانته من يدِ داعش وجدت بأنها من المستحسن أن تكون نازدار بجانبها وقت الزواج وأن تسكن بالقرّب منها من أن تعيش لوحدها مرّة أخرى بعيدة عن أختها. بعد برهة قلت لنازدار والكلمات تخرج من فمي بصعوبة للقرار الذي اتخذته:

-نازدار يجب أن تذهبي وتسكني مع شمو وأختك، عليك أن تبقي بجوارها فإنها في أمس الحاجة اليك ولايجب أن تتركيها بعد الزواج أيضاً.

التفتت نازدار ناحيتي وفي حدقتيها تساؤلات لا تعرف منها إجابة، أردفت:

- وأنت ماذا ستفعلين، كيف لي أن أتركك لوحدك هنا وأذهب معهم، كيف ستعيشين بدوني؟

- لا تخافي عليّ سأتكفل أمر نفسي. لربما سيعود سرمد فأنا لم أفقد الأمل برجوعه أو سأذهب مع عمي صباح إلى مخيمهم وأعيش معهم.

في الواقع لم أرغب في أن تتركني لوحدي وترحلِ ولكن لاحيلة لي فمن المستحسن أن تبقى نازدار بجانب ميان في ذلك الوقت، أما أنا فسوف أجد لنفسي حلاً ولربما فإن رافو قد كبرَ قليلاً. نطق شمو وكأنه يريد أن يبلغني بأمر هام:

-دادة كنار.. لقد رأيت عند مدخل المخيم رجل عجوز احتشد حوله مجموعة من الناس، غريب الأطوار مجهول الهوية قالوا بأنه يقرأ الفأل والطالع ويعرف خفايا الأسرار.

حدّقت فيه بإمعان، لم أفهم قصده، فهو دائماً يختصر الكلام ويتكلم بألغاز، فانتشلني من متاهتي مستوضحاً:

-فكرت ماذا لو سألته عن رجلك المفقود، لعله يعرف شيئاًعنه... لربما.

راقت لي فكرته، إنها لفرصة جيدة من أجل معرفة طالع سرمد، لربما أن هذا المنجم يحمل في جعبته خرزة يكشف لي فيها عن مكان سرمد ويعرف ما حل به، شكرته وتوجهت بسرعة إلى المكان الذي ذكره، رأيت رجلًا عجوزاً يجلس لوحده يتكئ رأسه على الحائط، يلبس سترة قديمة، لحيته البيضاء تغطي سحنته المتغضنة، وجهه الأحمر استحال سواد من شدة الشمس اللاحفة، اقتربت منه يبدو غريباً على هذا المحل، كان يضع بجانبه حقيبة قديمة مزركشة ومطرزة بألوان قانية، كنت أخشى السؤال، كيف أعرف منانه هو الرجل الذي يقرأ الطالع، كان بمفرده يستكين الصمت، رأيت أحد تلاميذي يمر بالقرّب من الساحة، أوقفته وسألته عن الرجل

الغريب، أخبرني بأن الناس يأتون إليه يستطلعون منه عن فألهم، علمت أنه الرجل المقصود، اقتربت منه بوجل، سلمت عليه، فتح عينه الجاحظتين وكشّر حاجبه وهو يحدّق في وجهي، تساءل عما أبتغيه وقال بصوت واهن:

-كيف لي أن أساعدك أيتها الملاك؟

انبهرت من ترديده ذلك الكلام وتوصيفي إياي بالملاك، كأنه شاب يتغزل بالفتيات، خجلت منه وتلملمت جانباً، لعله من خلال نظرات الزائر يعرف ويقرأ ما يحوم في أفكاره. قلت له بوضوح مستنجدة كمن يلتمس المساعدة لإيجاد شخص عزيز على القلب:

-قالوا لي بأنه يمكنك قراءة الطالع ومعرفة الغيب.

هزّ رأسه قائلاً:

-لربما سيّدتي.

دخلت في الموضوع مباشرةً:

-زوجي يدعى سرمد منذ دخول داعش إلى الموصل وأنا لا أعرف عنه شيئاً ولا أعلم ماذا حصل له، انقطعَت عنّي أخباره منذ ذلك الحين وأنا إلى الآن أحاول جاهدة لمعرفة مكانه.

أخرج من جعبته المصنوعة من جلدِ الماعز عدد من الخرز وأحجار وسلمها إليّ وطلب مني أن أنفخ فيهم بقوة وأرميهم أمامه، فعلت ما أمره، ورميتها على سجادة عتيقة بعد أن نفثت فيهم ملأ صدري هواءً حاراً، تفحص الاحجار الواقعة أمامه بأمعان وقال بعد هنيئة:

-روحاً طاهرة.. وإنسان صابر، إن رجلك شخص محظوظ فالملائكة يحرسونه ويحمونه من كل شر، إنه رجل صالح ولديه قلب طيب، إنه في أمان.. أمان.

تغلغلت تلك الكلمات إلى نفسي كأنها انبعثت من أوتار موسيقية ودغدغ قلبي وهزّ كياني كاملة. ارتجفت جميع أوصالي وتهلل وجهي ولأول مرّة بعد عهد من الانطواء تنفست صعداء وتوسمت الحبور، من شدة الغبطة لم أعرف كيف أعبر عن فرحتي، كدت أن أمسك بيده وأقبله إلا أنه سحبها وهو يرى ما حل بي من البهجة، ازداد نبض قلبي واشدت نفسي وأنا أقول:

- كيف .. كيف أرجوك أبلغني بعد عنه. ؟

- إنه في أمان يا سيّدتي.. إنه لم يزل حياً يرزق.

ترددت وكأنني أرجوه أن يكون صادقاً فيما قاله:

-هل أنت متأكد من ذلك سيّدي.. أين هو.؟

بكل حزم قال الرجل وهو ينظر في عينيّ ويقول باطمئنان:

- نعم يا سيّدتي أنا حدسي لا يخطئ.. كما أراه أمام عيني.. إن شاء الله رجلك في أمان.. ولكن لا أعلم أين هو بالضبط.

- هل سيعود لي سالماً.

- الرجل حي إلى حد الآن أما فيما بعد ماذا سيجري لهُ فهذا لا أعلمه فمكانه خطر جداً.. اذهبي وادعي له بالخير لعله سيعود لك سالماً.

لم أعلم كيف أشكره وأثنيه، كيفَ أرد له هذا الجميل لقد أعاد إليّ الحياة، دعوت من كلّ قلبي أن يكون كلامه صحيحاً. شكرته بامتنان، أخرجت محفظتي وأعطيته ما أمكنني من المال، رفض أن يأخذه كله أخذَ القليل منه وأعاد الباقي، تصرفه هذه مدني بالثقة الزائدة وأن الرجل لايكذب من أجلِ أن ينال بعض الفلوس. جمع أحجاره وأعادَ رأسه للخلّف ليعود إلى غفوته، قلت له بتردد:

-يا عم سأجلب لك الطعام.. انتظرني هنا سأعود.

فتحَ عينيه من جديد وقال لي بتواضع:

-لا تتعبي نفسك يا سيّدتي فقد أحضروا لي الطعام هناك الكثير من الطيبين في هذا المخيم.

كان الرجل في غاية الاحترام ولا يبالي بما يقدم له من الكرم كان مكتفياً بما لديه وقنوعاً. نهضت من عنده وودعته، عدت أدراجي إلى خميتي وأنا أحمل أنباءً سارة لرافو وأخبره بأن والده لم يزل حياً.

[٢٦]

كان الناس في مُخيمنا يقومون بزيارات عديدة إلى معبد لالش من أجل الدعاء والتماس الرحمة والمعونة من أجل الخلاص من شرِ هؤلاء داعش، وقد رغبت مراراً في زيارة لالش، زرتها العديد من المرات مع والديّ وعندما تزوجت اصطحبني سرمد إلى هناك مراراً.

لم يهدأ لي البال. كنت أرغب في الذهاب من أجل الدعاء لسرمد وقد واصلت الليل بالنهار وأنا أتمتم باسم الله أدعوه أن يعيده لي سالماً وأن ينجيه من داعش.

عندما أخبرت نازدار بما تفوه بهِ ذلك العجوز عن سرمد وبأنه لم يزل حياً فرحت جدّاً وبدأت هي أيضاً تتلو الأدعية من أجل سلامة زوجي، ثمّ ضربت تلك الأفكار التي استقيتها من محاولة الصحفي دلشاد في البحثِ عن زوجي واستنتجت من كلام الرجلين بأن سرمد لم يقع في يد داعش كما ذكر الصحفي وأنه متوارٍ عن الأنظار لا يعرف أحد مكانه، وثم أخبرني العراف بأن زوجي يختبيء في مكان آمن، كلّ ذلك أعاد إليّ الاطمئنان وأن أدعو لعودته سالماً.

سألت عدّة أشخاص في المخيم كانوا يقومون برحلات متزامنة إلى المعبد لالش الموجود في مدينة شيخان، أبلغتني أم قاسم العائلة التي تسكن بجوارنا بأنها على موعد للذهاب إلى لالش الاسبوع القادم وبعد أن ذكرت

لهم رغبتي في الزيارة أيضاً، أبدوا سرورهم، كانت أم قاسم تريد أن تدعو من أجل ولدها الذي لم يزل في تركيا يحاول العبور إلى أوربا كلاجئ.

بعد أسبوع أخذت رافو معي وذهبنا مع أبي قاسم وزوجته إلى لالش بسيارتهم، كانت الأجواء جميلة والربيع قد ملأ الربوع اخضراراً، لم أرى جمال السهول من زمن طويل، فلم تطأ قدمي خارج المخيم لفترة طويلة، كنت مع سرمد نقضي أوقات كثيرة نتجول ونسافر إلى الربوع التي تحيطُ مدينتا ونقيم هناك سفرات ونحضر مآدب ونأكل في الخلاء، تذكّرت تلك الأيام وتحسرت لها، لم أعد قادرة على الخروج لوحدي لا تنزه وأرفه عن روحي كباقي الناس، فلم يعد زوجي معي ولن أتكفل أيّ شخص من أجل الخروج معهم وسأبقى في المنزل طالما حياتي أصبحت بلا معنى بدون سرمد، أما الآن فزيارتي إلى معبد لالش تختلف، ذاهبة لأدعو من أجل عودته.

معبد لالش يقع فوق جبل بين منحدرين، إنه معبد قديم، يرتادهُ الإيزيدية، تسلقناه ونحن حفاة وأنا أحمل رافو في حضني تارة وتارة أدعه يسير بجانبي، كان المكان مكتظاً بالزائرين، أناس يرتدون مختلف الألوان، ممن يدعون من أجل استرجاع ذويهم ومن يدعو إلى سلامة أهله في يد داعش وهناك من يندب حظه لما حدث، يبكون ويدعون من الله أن يحفظهم ويخلصهم من شر هؤلاء القوم، لم أكن وحيدة ممن فقدوا أهاليهم، كان هناك الكثير أسوأ مني، منهم من مات أبناءه ومنهم من فقد عائلته بالكامل، كان المكان غاصاً بالنساء اللواتي يجلسن ويدعين من أجل ذويهن.

زرت المعبد وارتكنت مكاناً لوحدي ودعوت وصليت وبكيت من أجل سرمد وطلبت من الله خاشعة أن يعيده سالماً، ومن ثمّ دعوت أن يحل هذه الغمامة السوداء من على قومي وأهلي وكل الخيرين من بلادي ويعود المفقودين جميعهم إلى ذويهم ونعود سالمين آمنين إلى مدينتنا. كان رافو ينظر إليّ بإمعان واستغراب وقد أصابه الحزن عندما رآني أبكي، احتضنني وبدأ يمسح رأسه بي ويطلب مني السكوت والكف عن البكاء الذي لم يعد يتحمله.

كانت أم قاسم تجلس بجانبي تتمتم مع نفسها والدموع تسيل على خديها وهي تبتهل لله من أجل سلامة ولده اوأن يصل بأمان إلى أوربا. كان الرجال الموجودين في لالش يرتدون أغلبهم اليشماغ الأحمر.

بقينا إلى العصر جاءنا فيما بعد أبو قاسم يطلب منّا العودة إلى مخيمنا. كان هو أيضاً قد احمرت عيناه من الدموع، وقد مسحَ عيناه قبل أن يأتينا، كم هو كبير حزن الرجال، لم أتحمل أكثر بكيت من جديد، أن هول الأحداث لا يتحملها قوم صغار مثلنا. ما ذنبنا سوى أن ديانتنا تختلف عن الباقي. يبدو أن الألم والحزن ينساب كالنهر بين قومنا، أنه لامتحان عسير يا رب، نجنا من هذا الظلم الكبير.

عدنا وقد اغرورقت قلوبنا برحمة ربنا وتسللت الطمأنينة إلى ذواتنا فلا يوجد لدينا في هذا العالم الواسع سوى تلك البقعة الصغيرة لنخشع إلى ربنا ونطلب منه السلامة والرحمة والأمان.

ربما أن المخيم الذي نزحنا إليه ونسكن فيه له صفة أخرى إيجابية في جمع الأقرباء والأصدقاء، ذات يوم وأنا في المدرسة صادفت أن رأيت امرأة شكلها مألوفٌ لدي لم تكن غريبة الملامح، وكأنني أعرفها حقّ المعرفة، تغلغل فضولي لِمعرفة من تكون، كانت واقفة عند إدارة المخيم تحيطها عائلتها، عندما اقتربت منها تبين لي ملامحها واتضحت، ندت مني صرخة مكتومة وأنا أنادي عليها:

-زهراء.. ماذا تفعلين هنا.

التفت إليّ صديقتي زهراء باستغراب شديد لا تعرف من التي تناديها. أمعنت النظر ثمّ ندت منها صرخة وهي ترفع حاجبيها فجأة:

-صديقتي كنار.. ياللصدفة.

احتضنتها بشدة وهي فرحة للغاية لرؤيتي، كانت طالبة تدرس معي في نفس المرحلة في المعهد، سألتها عما تفعلها هنا، قالت بأنهم قد هربوا ونزحوا من الموصل وخرجوا من هناك بأعجوبة وقد جاؤوا إلى هذا المخيم، كما شاهدتها من قبل، كانت زهراء متغيرة جدّاً لم تكن هي تلك الفتاة المرموقة التي كنت ألفها بثيابها الفاتنة الجديدة، كانت قد نحفَت بشدة وخبت النظارة التي كانت تملأ وجهها وقد أثرت فيها الضروف الأخيرة، عرفتني على زوجِها كان واقفاً بجانبها وطفلتيهما الجميلتين المتعبتين جدّاً والخوف يمتلكهما، قالت لي:

- جئنا نبحث عن مكانٍ نأوي إليه هذا اليوم إلى أن نذهب فيما بعد ونجد طريقاً إلى أربيل، فلدينا أقرباء هناك.

- يمكنكم أن تبقوا معنا في خيّمتنا أن رغبتم.

حدقَ زوجها فيّ وقد انشرحت أساريرهُ بعد أن وجدوا لأنفسهم مكاناً مؤقتاً يأوون إليه فقد كانوا واقفين تحت الشَمس ينتظرون أن تمِدهم الإدارة بخيمة أو مكان جديد. شكرتني زهراء كثيراً حملت الحقائب معهم وذهبنا إلى خيمتنا.

رحبت بِهم في خيمتي وقدمت لهم ما يطلبون وأعددت لهم طعاماً جيداً فالتعب كان بادياً على محياهم والطريق الطويل الذي ساروا فيها قد أهلكتهم وقد عانوا الخوف والذعر من ملاحقة رجال داعش إلى أن تمكنوا من عبور خطوطهم.

حكَت لنا زهراء ما حدث لهم في الموصل وكيف كانت حياتهم في يد داعش وكيف قتلوا والدها ما أن دخلوا إلى الموصل لأنه كان مسؤولاً كبيراً في الدولة ولم يستطع الفرار والنجاة، أما هم فقد بقوا في منزلهم إلى أن استطاعوا أن يجدوا لأنفسهم منفذاً ويخرجوا من المدينة بواسطة شخص مهرب كان يعرف الدروب للخروج.

أما زوجها المهندس فقد سردَ لنا ما رآه من قتل وذبح داعش لأشخاص قد خرجوا عن قانونهم برميهم من فوق العمارات. رأى الويلات والموت مراراً

ومن هول ما عاش الرهبة والرعب فقد قرّرَ أن يغـادر هـذا البـلد إلى الأبـد، ولديه أخ في ألمانيا طلب منهم أن يهاجروا إلى هناك.

في الليل بعد العشاء تذكّرنا أيامنا السالفة عندما كنا طالبات في المعهد وأخبرتها بأنني مازلت أحتفظ بقطعة القماش التي جلبتها لي كهدية من جدها في مكة واعتبرها هدية ثمينة للغاية.

صباح اليوم التالي غادروا خيّمتنا وتوجهوا إلى أربيل حيث يتواجد عم زوجها، دعوت لهم بالخير وعلى ما يبدو فإن زوجها كان مصرّاً على الهجرة إلى تركيا قريباً ومن هناك سوف يعبرون البحر بالقارب.

[٢٧]

جاء شمو مع عائلته إلى مخيمنا من أجل الزفاف، وبدأنا بإجراء تحضير الحفلة، قرّرنا أن نقيم لها حفلاً بهياً وسيكون في خيّمتنا، ليلة قبل الزفاف أقمنا حفلة للحنة، ووضعنا الحنة في يدي ميان وبدأنا نغني لها ونهلل من أجلِها، تلك الفتاة المحطمة بدأت شيئاً فشيئاً تستعيد حياتها ورونقها رغم أن الجرح الذي في داخلها لمن الصعب أن ينمحي بسهولة. أما أنا فمن أجل ميان لأمحو عنها ذاكرتها السوداء كنت أبتسم وأغني لها رغم أن ما أحملها في ذاتي من حزن لها عسير أن تصطنع السعادة إلا أنني حاولت أن أخفي ملامح الكدر التي تخضب وجهي من أجلها ومن أجل نازدار التي فرحت للغاية وبكت ليلتها وهي تشهد فراق أختها الوحيدة مرّة ثانية بعد معانات طويلة من الانتظار لعودتها وظهورها إلا أن هذه المرّة ستكون في مأمن من أيّ شر آخر. وهذا ما دعَت لها طوال الليل في أن تعيش حياة آمنة وسعيدة مع زوجها شمو بعيداً عما يعكر حياتهم من الشر أو البؤس والحزن.

اليوم التالي أحضروا لها فستاناً جميلاً وارتدته، أحضروا فرقة موسيقية شعبية من طبال وناي وبدؤوا العزف والطبل والغناء واجتمع الناس حول الخيمة، وبدأنا بإعدادِ الطعام ودعونا الناس من أماكِن متفرقة إلى الحفلة وتقدمت النساء مسبقاً وقدمن الهدايا لميان من الأقمشة والحلي الجميلة والملابس الجديدة، كان يبدو على الحاضرين بأنهم يحبون ميان ويميلون لها

ويحاولون أن يملؤوا حياتها فرحاً من جديد كأن شيئاً لم يكن أو يحدث سابقاً. أثناء الحفلة تذكّرت نفسي يوم زفافي كيف كان وكيف كانت والدتي تحضرني للزواج وصديقاتي وأنا في لهفة من أجل رؤية سرمد. أقمنا حفلة زواجنا أمام منزله، دعونا الأقرباء والجيران، في البدء كنت في منزلنا واتصل بي سرمد ليخبرني بقدومه إلى البيت لأخذي، كنت لم أزل في الصالون والسيّدة التي تشرف على تجّميلي أخبرتني بأن الوقت لم يزل مبكّراً، تحتاج إلى نصفِ ساعة أخرى من أجل أن تنتهي من عملها، أخبرته بذلك ضاق ذرعاً فيرد عليّ بأن نُصف ساعة لديه كسنة كاملة، لا يستطيع تحملُه، فإنه في الشوق لأخذي من تحت يد أمي، قلت لها بأنني قد أصبحت ملكاً له ولا أحد يستطيع أن يسحبني منه. كادَ أن يهتاج إلا أنه هدئ، وأخبرني بأنه سيأتي قبل ذلك فلتنهي تلك المرأة عملها بسرعة، ضحكت من جزعه ولهفته. وهذا ما جرى فقد حضر قبل الأوان بعشر دقائق وانتظر مع أصدقائه وعائلته خارج الصالون يزفون ويغنون إلى أن خرجت لهم، انبهرَ سرمد لرؤيتي كانت عيناه السوداوين قد تلألأتا بوضوح، قرّب فمه من أذني وهمس لي بين أصوات الأغاني والدبكات ليقول (يا لروعة جمالك، لم أر امرأة بهذه الغاية من الجمال في حياتي أبداً)، لا أعرف هل كان يبالغ أم لا، كنت قد ارتديت إكليلاً على رأسي كرمز لنور الشمس على الأرض وهو عبارة عن كلمة مقدسة مخروطية بيضاء وشفافة تغطي الوجه وارتديت

وشاحاً أحمر كرمز لوردة شقّائق النعمان المقدس (وردة نيسان) التي تُمثل بداية الخليقة.

كعادات الزواج فيما بيننا، عندما وصلت إلى دار سرمد، أوقعوا خروفاً وذبحوه أمامي، حملت فستاني ودست على دم الذبيح ومن ثمّ حملت غصن الزيتون في يدي كتعبير عن الحب والسلام، وقفت أمام سرمد الذي أعطوه ماعوناً من الملح والسكر ورشه أمامي، ثمّ بدأ الرقص على إيقاع الدباكات والناي واستمرّ الحفل إلى منتصف الليل.

كنت أرى الدموع تملأ عينيّ ميان، لم أكن أعرف مصدرها ولم أشأ أن أسألها، مثلها كانت نازدار تذرف من بين كمامة القماش تبكي على أختها. أبلغتها قبلها بأيام بأن عليها أن تسافر مع ميان إلى حيث تسكن وتبقى معها لفترة، أما أنا فقد أبلغت عمي وزوجته أن يأتيا إليّ وينتقلوا ويعيشوا عندي في مخيمنا إلى أن يتوضح لي أخبار سرمد بعد أن صممت على أني لن أغادر هذا المخيم وسوف أنتظر قدوم سرمد إلى هنا، لذلك في النهاية أذعنوا للأمر وقرّروا إن لم أرغب بالذهاب معهم بأن يأتوا هم إليّ ويعيشوا معي إلى أن يعرفوا إلى أين ينتهي بي مصيري هنا.

جمعَت نازدار حقيبتها وحاجاتها، احتضنتني بقوة وبكت فوق كتفي وقالت بصوت أجش:

-سوف أدعي كلّ ليلة من أجل أن يعود لك زوجك سالماً، سأعود لك حتماً فأنت بمثابة أخت لي وأنا مُمتنة لك لمساعدتك لي إلى هذا الحين.

ابتسمت في وجهها قائلة:

-إذاً لا تنسي أختك وعودي إلينا في أسرع وقت.

طأطأت رأسها بالنعم وتوجهت إلى سيّارة العريس والعروس وصعدت في الأمام لتكون مع أختها في رحلتها إلى مخيم شمو... ذهبَ الجميع وتركوني لوحدي مع رافو وقد انضم إلينا عمي صباح وزوجته ليسكنا معي، وكنت في غاية السرور لوجود عمي بقرّبي فهو بمثابة أبي وملاكي الحامي.

في الليل حكت لي زوجة عمي عن خيط الباقلاء بعد العرس، وسألت هل سيقومون بذلك لميان في بيت شمو. فمن عادتنا في أول أيام الزواج أن يدفن العروسة خيط من الباقلاء في مكان مخفي لا يعرف عنه أحد فإن اكتشف مكانه من قبل أيّ شخص فذلك يعني تبيان واقتراب نهاية مصير العروسين لذلك يجب أن تخبئه في مكان لا يعلم به أحد.

فبعد زواجي من سرمد وانتقالي إلى منزل عائلة سرمد ألبسوني يومها يشماغاً أحمر فوق كتفي، حَسب العادة كان يجب أن لا أنزعها حتّى ثلاثة أيام وفي يوم الثالث أجروا لنا حفلة (باقلة العروس)، حيث طبخوا الباقلاء مع الحمص ثمّ غرزوا سبع باقلاء وسبع حبات من الحمص المقلي في خيط واحد بواسطة إبرة وطلبوا مني أن أختار ولداً لأخبئ معه تلك الخيط في مكان لا يكتشفه أحد. فاخترت ابن عمي صباح الذي زعل كثيراً من اختياري له إلا أنه انصاع لرغبتي في النهاية، لأنه سيكون هو حسب العادة

أخي الذي اخترته بنفسي إلى الأبد. فقمنا سوية بإخفاء الخرزة بعيداً عن أنظار الناس. اخترنا شجرة الصفصاف حفرنا تحتها وأخفينا الخرزة.

إلا أن الأمطار والسيول والماء أزاحت التربة التي تحيطه. وذات يوم كنت في المطبخ أعد الطعام حين كان ماهر يلعب مع رافو في الباحة، لم أنتبه له ماذا يفعلان، فجأة سمعت صوت ماهر وهو يناديني:

-لقد عثرتُ على شيء أم رافو.

حينما خرجت إلى الحديقة أصابني الفزع، لقد اكتشف مكان خيط الباقلاء الذي أخفيته. مسكت به من ياخته ووبخته بشدة وضربته أيما ضرب لقيامه بذلك، فإن اكتشاف ذلك الخيط لهو نذير شؤم لعائلتنا.

ويبدو أن ماهر قد اكتشف أثره.

يومها حزنت للأمر كثيراً وأعدت زرع خيط الباقلاء من جديد في مكانه في أمل أنه لم يحدث شيء، ولكن للأسف يبدو أن ذلك النذر المشؤوم قد أحاطتنا فبعد ذلك الحادث بشهرين اختفى عنّي سرمد عن جد.

[٢٨]

بعد مرور ثلاثة أشهر من زواج ميـان، ذات يـوم عادت نـازدار إلى خيّمتنـا، وجدتها أمـام الخيّمـة وهي ترتـب حاجاتهـا، كانـت تعلـو وجههـا ابتسـامة والقليل من الدموع، حضنتها بقوة وطلبت منها الدخول وقلت لها:

-لقد افتقدك كثيراً كدت أظن بأنني لن أراك مرّة أخرى.

أعلمتني بأنها قرّرت أن تتركهم لحالهم وأن تعود لتعيش معنا بعد أن شـعرت بالملل من الجلوس في بيتشمو وأحست بالثقـل علـيهم ووجـدت أن مكانهـا بينهم لا يتناسب، قالت لي بصوتها المتهدج:

-وجدت أنه من الأفضل البقاء معك من البقاء مع عائلة لا أعرفهم وأكون عليهم حملاً، لقد تزوجت أختي وتلك كانت أمنيتي الكبيرة وقد تحققت وهي الآن في منزل زوجها، أما أنا فلم أنس بأن لدي أخت ثانية لم تلدها أمي وأرجو أن لا أكون عالة عليك.

حضنتها بقوة وقلت لها:

-بالعكس.. لكم تمنيتُ أن تعودي إليّ وتعيشي معي لقد أحسست بالوحشة بدونك، فهذا المكان خلا بدونك، كما أن عمي صباح وزوجته كانا يرغبان للعودة إلى مخيمهم إلا أنهما لم يصرحا بذلك.

بعد أن عادت نازدار للسكن مـعي واطمـأن عـمي بـأنني سـأكون في أمـان رجعا إلى مخيمهم، وإلى محل الخضار الذي كان يمتلكه عمي. بعـدها شـعرت

بالسعادة فقد كنت أحس بصعوبة ما علـيهم لتواجـدهما مـعي والتزامهمـا للبقاء بجانبي.

أخيراً باتت لدينا كابينة لنسكن فيها بدل الخيّمة، فقد استبدلوا خيامنا بتلك الكابينات حيث توسع مكان معيشتنا وشعرنا باستقرار أكثر. بما أن الحرب قد طال أمدها وبدأت القوات الأمنية تلاحق داعش بقوة وتحاول استعادة المناطق التي سيطر عليها وبدأت دول التحالف تبذل جاهدة من أجل القضاءعلى داعش ومطاردتهم وإخراجهم من البلد بكل الأشكال وإنهاء وجودهم.

كبر رافو وبدأ يتكلم ويردّد كلمات أكثر وضوحاً ويسألني مستفسراً عن أشياء تحيطه وصار عنده أصدقاء من أولاد الخيم المجاورة ويلعب معهم في ساحة المخيم، كانت نازدار تعتني به وتراقبه عندما أكون في المدرسة وكانت هي أفضل يد عونٍ لي وساعدتني كثيراً، كانت ميان تزورنا بين حين وآخر تأتي إلى مخيمنا مع شمو، كانت على مايبدو أنها قد استعادت عافيتها وبدأنا نرى البسمة تملأ وجهها وبعد أن كان من الاستحالة أن نرى ذلك قبل زواجها، كانت نازدار سعيدة وتشكر شمو لأنه استطاع أن يعيد البهجة إلى وجه أختها وأعاد لها الأمل.

ذات يوم قرّرت أن آخذ رافو معي إلى التلة المجاورة لمخيمنا، مجرد نزهة قصيرة خارج عالم الكابينات المختنق ونشاهد اخضرار الربوة القريبة منّا يرافقنا صديقه كاوة من الكابينة المجاورة، كان الفصل ربيعاً، الورود قد

تفتحت وملأت رائحتها الفواحة في الأرجاء، فرح ولعب رافو كثيراً مع صديقه كانت هناك أيضاً عوائل تتنزه فوق الربوة وافترشوا الأرض ليأكلوا. بعد هنيهة جاء رافو وسألني ذلك السؤال الذي كنت أخشاه منذ زمن، بعد أن رأى الأولاد يلعبون مع أبائهم الذين يصنعون لهم الطائرات الورقية، قال لي وهو يغمض أحد عينيه:

-ماما .. أين والدي؟

أوروقت عيناي، أحسست بالحاجة إلى سرمد أشد الحاجة وأنا أحدق في عينيّ الولد، أخذته في حضني وقلت له وأنا أوشر ناحية الموصل

-هناك يتواجد والدك، ذهب إلى هناك في مهمة وسوف يعود إلينا.

حملت بعض الأوراق من دفتره وبدأت بصنع الطائرة الورقية وقلت له:

-أنا من سيصنع لك الطائرة لحين عودة والدك من السفر.

رغم قلت معرفتي في صناعة تلك اللعبة قد استطعت أن أعمل له واحدة صغيرة، قبلني رافو وركض مع صديقه يحملون الطائرة ليرمونها من فوق الربوة، لم يكونا يعرفا كيف يتم اللعب بها، أخذتها منهما ورميتها عالياً ثمّ شددت الخيط إلى أن توازن مع الهواء الذي دفعها إلى أعلى إلى مسافة عالية بعيدة شيئاً فشيئاً عن أنظارنا.

عندما عدنا إلى الكابينة، سحبتني نازدار جانباً وذكرتني بأنه قد حان وقت طهور الولد فهو قد اجتاز السن الثالثة ولا يفضل التأخير. كانت على حق فلم أفكر بذلك من قبل لقد كنت هائمة البال فجل ما يدور في خلدي هو

زوجي سرمد وكدت أنسى ذلك الأمر. كنت أتمنى أن يكون سرمد حاضراً مع رافو وقت الختان فهو يعرف كيف يعتني به جيداً. لكن نازدار كانت على حقّ فقد كبر الولد ولا يجوز التأجيل أكثر وسيكون الأمر أكثر قسوة عليه. فكرنا في الأمر وأعلم بأنه يتطلب الإعداد لذلك وذبح خروف له لندعوا الأصدقاء والجيران إلى الوليمة، ثمّ أردفت نازدار قائلة:

-بما أن شمو لدينا فهو يمكن أن يساعدنا ويأتي معك إلى العيادة لطهر رافو وسوف أقوم أنا بإعداد الطعام.

صباحاً ذهبنا إلى العيادة المركزية للمخيم، كان الطبيب حاضراً، وضع شمو الولد في حضنه وهو يبتسم ويقول لي:

-سأكون (كريف) لرافو.

فرحت بالغ الفرح عندما قال ذلك، ففي عادتنا أثناء الختان يتخذ في بعض الأحيان للولد (كريف) وهي من أنبل عاداتنا، نتخذ من شخص معروف أو صديق كريفاً وذلك بأن يضع الطفل في حجره (أي حجر الكريف) أثناء ختان هو يصبح بذلك مؤاخياً له ويضحي الكريف أو والد الفتى بحياته من أجل الآخر ويكون يده اليمنى في أوقات الشدة والضيق، وغالباً ما يكون الكريف (مسلماً) أيّ من أحد المسلمين، وقد يكون إيزيدياً وإذا كانت الكرافة بين الايزيديين فقد يدخل الواحد في محرمات الآخر ولا يجوز لأحدهما أن يتزوج من عائلة الآخر ويكونان بمثابة أخوين.

لم أستطع تحمل رؤية الدم من رافو، أزحت عينيّ بعيداً، كان رافو يبكي ويصرخ بشدة إلا أن شمو حاول تهدئته، وبعد أن أنهينا الختان عدنا إلى الكمب، كانت نازدار قد أنهت إعداد الطعام وبدأنا نوزع الصحون من الطعام على الخيم الأخرى. وحضر من استطاع إلى كابينتنا وفرشنا لهم مائدة كبيرة. رغم سعادتي لأن رافو قد كبر، إلا أنني حزنت لأن والده لم يكن بجانبه في هذه المراسيم.

[٢٩]

بعد مرور شهور جاءتنا الأخبار المفرحة من جبهات القتال ضد داعش، لقد تم تحرير سنجار كان وقع الخبر كبيراً على مسامعنا، من شدة الفرح كان الجميع يدعون الله ويشكرون القوات على تحرير بلدتنا.

الجميع يجلسون أمام التلفاز ويتابعون الأحداث باهتمام وشغف، طائرات التحالف تقصف بشدة مواقع داعش، أما قوات البيشمركة فقد ارتكنوا عند مشارف المدينة في انتظار توقف الطائرات والهجوم على المدينة. النار والدخان يتصاعد من المنازل التي تقصفها الطائرات فيهب أهبة قوية من الناس لمّا سيحل بمدينتهم من دمار، يقدرون بظنونهم عن مكان الذي تم ضربه بالطائرة، عند أيّ منزل أو ساحة أو قاطع ومن أيّ جهة من دارهم وقعت الصاروخ.

كنت خائفة من أمر ما كان قد طرأ على بالي عن سرمد، ماذا لو أن سرمد قد غادر الموصل في وقتها إلى سنجار ليقتفي أثرنا ويتحرى عنا طالما لايستطيع الخروج من نطاق أراضي التي يستولى عليها داعش، فإن كان هو الآن في سنجار فإن الأمر خطيرٌ جداً، فتلك الصواريخ تفتك بكل كائن حي فيما حوله. اتنابتني القلق والهواجس من ظنوني التي بدأت تتبلد مخيلتي، كلّ صاروخ ينفلق في المدينة يقلع من قلبي جزءاً. دعوت بأن لا يتواجد في هذه المدينة المتهالكة.

بعد تحرير المدينة وانتهاء القتال ورفع علم النصر، اتصلت بعمي صباح وطلبت منه أن يتفقد أخبار سرمد من خلال أيّ شخص يزور سنجار أو يذهب هو بنفسه إلى هناك فذلك أفضل، إلا أن السلطات طلبت من الأهالي عدم الذهاب إلى هناك في الوقت الحالي فإن المنازل والشوارع والمباني مليئة بالألغام والمفخخات التي سوف تنفجر عليهم في أية لحظة، طلب منهم التريث إلى حين يتم تمشيط جميع المنازل والأماكن من المتفجرات ليكونوا في مأمن من أيّ حدث مفاجئ، زرع داعش ووضع القنابل في كلّ بقعة من المدينة ليصيب ما أمكن من الناس أن هم فشلوا وهربوا من المدينة بعد سقوطهم. أخبرني عمي بأنه سوف يذهب بنفسه إلى المدينة بعد أن يستأذنوا للناس بالعودة إليها.

بدأ الناس الذين يسكنون سفح الجبل بالنزوح إلى المدينة التي هجروها منذ مدة وها هي قد عادت إليهم ولكن عادت مدمرة، بعض المنازل لم يبقى منها سوى إطلالات، استقبلت المدينة الجريحة أبناءها إلى أحضانها وقد ملأها الخراب لما حدث.

كما وعدني عمي صباح ذهب بمفرده، وهناك اتصل بي، كان صوته مخنوقاً يخرج الكلام بصعوبة، أخبرني بصوت مكبوت بأنه لا أثر لسرمد في هذه المدينة، والشوارع مليئة بجثث أزلام داعش ورائحة الموتى وتفسخ الجثث تفوح من المنازل التي كان الناس يخاف أن يرتادوها خشية من أن تكون ملغومة ولم يستطيعوا حتّى الاقتراب منها. لم يستطع عمي المكوث كثيراً

غادر المدينة بسرعة وقد ازداد قلبه حزناً ولم يطق مشاهدة الرعب الذي لحق بالمكان. أحس بانكسار كبير في ذاته وكأن نهايته قد جاءت مع نهاية مدينته المنهارة.

اتصلت بي زوجة عمي وأخبرتني بأنه ليس على ما يرام فإن صحته قد تدهورت بعد زيارته لسنجار، وقد ارتفع ضغط دمه وأخذوه للطبيب. قرّرت أن أزوره مع رافو لأتيقن من حالته فأنا لا أملك في هذه الدنيا سواه الآن، دعوت الله بأن يحفظه، فلم أرغب أن أخسره هو أيضاً.

كان عمي منزوياً في جانب من الخيّمة استقبلني ببرودة كجسد ميت لم يعد ينبض بالحياة، هل هذا هو عمي الذي عرفته، عمي الذي كان يهابه الناس، الآن واقع على الفراش يرتشف ببطء جرعة الموت بعد ما رآه من مدينته التي انقلبت رأساً على عقب، ضاقت به الدنيا، رحب بي ولم يرغب بالكلام استكان الصمت وخفض رأسه وعيناه تحدقان في الفراغ كأنه لا يستطيع إعادة حسابات ماضيه وما انتهى إليه، كأنه اندثر مثلّما تدّمرت بلدته.

جلست بجانبه لم أتحمل ما آل إليه اغرورقت عيناي بالدموع وبكيت فوق كتفه، غرقنا في زمن لا رحمة له، أندب حظنا، كيف وقعنا في هذه الخارطة المليئة بالدماء والحقد والضغينة.

فيما بعد أخبرني عمي أن منزلنا تهدم جرّاء قصف الصواريخ وأنه من الصعب التكهن في أنه لا يكون ملغوماً أيضاً. كنا نرغب في العودة إلى سنجار إلا أن الأهالي كانت تنتظر الفرق الهندسية أن تقوم بإزالة

المفخخات من المنازل، فقد سمعت بأنه قد حدثت عدة انفجارات على أصحاب العوائل التي عادت إلى منازلهم، لقد ترك داعش سمومه من خلّفه، إضافة إلى ذلك فإن بقايا الشرذمة كانت لم تزل باقية في الموصل وفي النواحي القريبة مثل مدينة تلعفر، لذلك مازال خوف داعش يحوم في أطراف تلك المدينة. عدت إلى مخيمنا، وأنا أخبر نازدار بأن كابينتنا هذه لربما سنمكث هنا لفترة طويلة ولحين العودة إلى مدينتنا.

[٣٠]

بـدأ الظـلام الأسـود ينقشـع ويتبـدد ويـبزغ شـعاع الشـمس والجـيش والبيشمركة يدحرون داعش إلى الوراء. وبدأت الأمور تنبلج أمامي واضـحاً جلياً، يتعالى في داخلي نار الانتظار لمعرفة أخبار زوجي.

ذات يوم زارنا شخص غريب، لم أره من قبل، كان يبدو من هندامه بأنه زائر أتي من مكان بعيد، بعيد جداً، جاء خصيصاً لرؤيتي، قطع مسافات واسعة وسع البحار من أجل روئيتي، كأنه يملك خبراً مهماً، خبراً يضع الحروف المطلوبة في مكانه وينحسر الغيوم في أجوائي. عرف بنفسه بأنه يدعى جاسم عادل، ارتسم في وجهه السعادة حين علم بأنني كنار وقال بحبور:

- وأخيراً وجدتك، لقد تعبت كثيراً في البحث عنك.

استغربت من أمره ولماذا يبحث عنّي فأنا لا أعرفه ولم أقابله من قبل أبداً، أدرك ما أنا عليه من اندهاش فأزاح عنّي الشكوك وقال بسرور:

-اسمي جاسم.. لدي أخبار مهمة عن زوجك، فهل تسمحين أن أدخل إلى الكابينة أم نتكلم في الخارج فأنا صراحة منهك من التعب والتجوال بين الخيم بحثاً عنك.

امتلأني الحبورعندما ذكر اسم زوجي على لسانه... في الحال فتحت الباب وطلبت منه الدخول. كانت نازدار جالسة في الداخل، قامت مرحبة بالزائر

الغريب. جلس الرجل وارتشف القليل من الماء، كان يبدو عليه أنه لم يرغب في شربه وأعاده إليّ بعد أن بلل به لسانه، قال كأنه يبرر فعلته:

-آسف لقد عدت لتوي من بريطانيا وأحاول أن أحافظ على صحتي كما هي. أخاف من شرب المياه العامة.

قبلت اعتذاره، ولم يكن الأمر مهماً لدي بقدر أهمية ماكان يحمله من أخبار عن زوجي، فكرت فيما يربطه هذا الرجل من علاقة بسرمد وهو قد حضر من بلد بعيد يحمل لي أنباءً عنه، جلست أمامه أسترق إليه السمع في انتظار أن يتفوه، حدّق في ولدي الذي كان يلعب جانباً وأردف متسائلاً:

-هل هذا هو رافو؟.

تفاجئت أنا ونازدار لمعرفته باسم ولدي رافو و أومت له بالنعم، فقال مواصلاً:

-لقد تحدّث عنه سرمد كثيراً، فإنه في شوق لرؤيتكم.

زاغت عيناي لدى سماعي تلك الكلمة، إذاً سرمد مازال حياً طالما قال ذلك، امتلأت رئتي بالهواء وانحبس في صدري مترقباً، التفتت نازدار ناحيتي ثمّ قالت للرجل:

-كيف تعرف عن أخبار زوجها سرمد؟.

توقعت بأن يكون سرمد في بريطانيا وقد جاء هذا الرجل يحمل لنا أنباءه، هل سافر مع موجة الناس الذين هاجروا إلى الخارج، كيف يتركني لوحدي

ويذهب، ولكن لا يهم طالما أنه خرجّ من تلك المدينة بسلام فليمضي- إلى أيّ بقعة أخرى من العالم، المهم أن يكون بأمان، سألته متلعثمة:

-هل تعني أن سرمد في بريطانيا؟

فوجئ الرجل لكلامي، لكنه استطرد موضحاً لنا:

- لا ليس ذلك ما تتصّورونه، آسف فأنا لم أره أيضاً ولكن أحمل لكم أخباره، إن سرمد لم يزل يعيش في الموصل مع والدتي، وقد طلب مني أن أطمئن عليكم وأستفسر عنكم، فقد كان قلقاً عليكم بشدة.

- كيف هو الآن، هل هو في مأمن من داعش.

- نعم أنه في مأمن ويعيش مع والدتي، مختبئاً في منزلها بعيداً عن أعين داعش.

استغربت من الأمر فنحن لا نعرفهم وليس هناك من أيّ صلة قرابة تربطنا بهم أو تعرفنا عليهم سابقاً، فلماذا تهتمّ به تلك المرأة العجوز وترعاه في منزلها، قال جاسم يقصّ عليّ الحكاية من أولها:

-إن والدتي كبيرة في لسن وقد بلغت السبعين من العمر، كانت تعيش مع والدي في الموصل، قبل سنتين سافرتُ إلى بريطانيا من أجل الدراسة لإكمال الماجستير والدكتوراه، فتركتهما لوحدهما، عندما كنت في لندن توفي والدي، فرجعت إلى الموصل في حينها وأنا في نصف طريقي لإنهاء دراستي لم أعرف ماذا أفعل كيف لي أن أترك والدتي لوحدها في الموصل وأنا مازلت في مرحلة الدراسة وإتمام مشروعي، طلبت مني والدتي أن أرجع لأكمل دراستي وأعود

فيما بعد من أجلها، لم أرغب بأن أتركها لوحدها في الموصل لذلك وعدتها بأنني فور ما أعود إلى بريطانيا فسوف أحصل لها على تأشيرة الدخول وتسافر معي إلى هناك، ولكن لم يمر شهر من ذلك وكنت سأكمل لها إجراءات السفر حدث ما حدث في الموصل ووقعت المدينة تحت يد الإرهابيين. عندها انقطع أملي من الرجوع لأخذها معي ولم تستطع هي أن تغادر المدينة في تلك الآوانة لأنها كانت مريضة جدّاً وقد رقدت في مستشفى الموصل، لم يكن هناك من أحد بجوارها، كانت لوحدها، هناك التقى بممرض طيب يدعى سرمد الذي يبدو عليه أنه قد أدرك بأن تلك العجوز لا تملك أحداً من أجل أن يداريها لذلك حن عليها قلبه وشعر بعطف لها فبقى يعتني بها لوحده ويدبر لها الأدوية ويجلب لها جميع المستلزمات الطبية ويبقى جالساً بجوارها من أجل أن لا تشعر بالوحدة، كان يستوجب أن يكون هناك شخص مرافق يجلس بجوار والدتي عند الليل لأن حالتها كانت خطيرة ويجب أن يكون هناك من يتابع حالتها عن كثب، فبقى سرمد بجانبها كلّ ليلة وعلمت والدتي فيما بعد بأن سرمد كان يسهر بقرّب سريرها في الليل وفي اليوم التالي صباحاً يعود إلى عمله رغم أنه لم يكن من واجبه أن يبقى كلّ تلك الليالي ساهراً بجانبه ليعتني بها. أحبت والدتي ذلك العطف الذي يحمله سرمد، قلب مليء بالحنان تعاملها كأنها والدته وينادي بوالدتي، وعلمت أمي بأنه أيزيدي لذلك عندما دخل داعش إلى الموصل، لم يكن لسرمد مكان يأوي إليه ويختبئ فيه عن عصابات

داعش، كان يفكر أن يعود إلى مدينته. إلا أن الأمر كان في غاية الخطورة. الناس مذعورين لم يعرفوا ماذا يفعلون، كانت خطوة جيدة من أمي عندما قرّرت بأن تأخذ سرمد معها إلى منزلها، فقد علمت بخطورة وضع سرمد إذا ما وقع في يد هؤلاء الرجال فإنهم سيقتلونه لا محالة، لقد حماه عطف قلبه من الوقوع في يد هؤلاء الغربان، عرضت عليه والدتي أن يأخذها إلى منزلها وأن يبقى معها فهي تعيش لوحدها ليبقى لديها إلى أن يحين الوقت المناسب ليرحل خارج المدينة، وكانت أمي أيضاً تحتاج إلى شخص ما يعتني بها وهي مريضة فإلى ذلك الحين يمكن لسرمد بأن يتابع مرضها ويهتم بصحتها، وافق سرمد على السكن في منزلها إلى أن تحين له الفرصة للرحيل، ولكن الأمر زاد سوءاً يوم بعد يوم وأصبح من الاستحالة أن يخرج سرمد من ذلك المنزل وحتى أن يمد راسه خارج الباب، وظلّ مختبئاً في منزل والدتي، الوحيدة والدتي هي التي كانت تذهب إلى الخارج وتتسوق وتجلب الغذاء لهما ولم تشأ أن يعرف الجيران بوجود رجل أيزيدي في منزلها، فقد كانت تخاف من داعش لأنهم كانوا يأتون إلى المنازل ويفتشونها بحثاً عن الغرباء وأشخاص يتقصدونها من خلال الهوية وما هو دينه. وذات يوم جاء داعش إلى الحي يفتشون المنازل، عندها خبأت أمي سرمد في السرداب وعندما دخلوا منزلنا فتشوا الغرف جيداً ولم يجدوا أثراً لأحد سواها. عثروا على ملابس سرمد استفسروا عنها أخبرتهم بأنها ملابس ابنها الذي سافر إلى الخارج من أجل الدراسة، تركوا المنزل ونجى منهم سرمد بأعجوبة. حاولت الاتصال بوالدتي

مراراً إلا أن الاتصال كان ضعيفاً، اتصلت بي والدتي فيما بعد وأخبرتني بكل ما حصل، وتعرفت على سرمد من خلال الهاتف وطلب مني أن أتفقد أخباركم وأن أسأل عليكم فقد علم بأن من كان في سنجار من الإيزيديين قد غادروا البلدة إلى المخيمات الواقعة في أربيل ودهوك، لأبحث عنكم وأزوركم لأطمئن عليكم وأرسل لكم أخباره فهو لا يعرف عنكم شيئاً.
طلبت الإذن من جامعتي أن أغادر وأعود إلى هنا لأبحث عنكم وأجدكم وأوصل لكم أخبار زوجك، وبعد فترة بعد أن أنهيت مشروع بحثي استأذنت من الجامعة وسافرت راجعاً إلى أربيل وصلت قبل يومين وبحثت عنكم في عدة مخيمات إلى أن وجدتكم هنا أخيراً.
امتلأت عيناي بالدموع من السعادة كدت أطير من الفرح، لقد استجاب الله دعائي وأرسل له تلك المرأة العجوز لتكون مثل ملاك تحميه وتخفيه في منزلها.
سألته عن إمكانية الاتصال به، ردّ وهو يهزّ رأسه آسفاً:
-بالتأكيد سوف أعطيكم رقم تلفونهم، إلا أنه منذ فترة انقطع الاتصال معهم، لقد امتنعوا من الاتصال خارج المحافظة. أنا أيضاً منذ أكثر من ثلاثة أشهر لم أستطع أن أتصل بهم، لقد انقطعوا عنّي تماماً. ولا أعرف كيف أتواصل معهم، على كلّ حال سوف أعطيك رقم التلفون أن أمكنك استحصالهم فأرجوك أن تعلميني به، أما أنا فيجب أعود إلى بريطانيا لأكمل دراستي لن أتاخر كثيراً.

أعطاني رقم تلفون والدته وكذلك رقم تلفونه في لندن كما أخذ رقم جوالي أيضاً، وثب الرجل ليغادر، طلبنا منه أن يبقى لدينا ونعد له الطعام، شكرنا واعتذر من البقاء أكثر كان يستلزم منه أن يعد العدة للعودة إلى لندن وأن هناك بعض المواعيد يجب أن يتفقدها في اربيل قبل أن يسافر، لم أستطع أن أمنعه من الرحيل فكان على مايبدو أنه على عجل من أمره. كان المطر في الخارج قد ازدادت حدته، خرجّ بعد أن ودّعنا وقبل رافو وشكرته كثيراً لمّا بذله من جهد من أجل إيصالي تلك الرسالة القيمة.

[٣١]

بعد تحرير سنجار، اقتربت جحافل الجيش والبيشمركة من مدخل مدينة الموصل وبدأت عمليات تحريرها. كنت أتابع الأخبار باهتمام يحيطني التوجس من مصير سرمد الذي يختبئ في بيت تلك العجوز، هل أنه لم يزل هناك؟ فمنذ ستة أشهر ولا نعرف عنه خبراً، اتصلت مراراً بجاسم عادل في بريطانيا، أخبرني بأنه لم يصله أيّ اتصال من الموصل وأنه في شغف لمعرفة أخبار والدته وأنه يعد نفسه للعودة إلى العراق بعد أن أنهى دراسته وحصل على الشهادة، عاد القلق يساورني عن بقائه حياً في زمام ما تحدث في تلك المدينة من الاقتتال والصراع وصواريخ الطائرات التي تقصف بلا هوادة والمفخخات المنتشرة كجراد الحقول هل سينجو منها بأمان ويخرج منها باعجوبة. تركت مصيره بيد الله ولم يكن لي سوى أن أدعو من أجل نجاته في هذه المعمة المحتدمة اللامتناهية.

انقسمت عملية تحرير المدينة إلى قسمين الجانب الأيسر من المدينة والجانب الأيمن، أثناء عملية الهجوم بدأ الناس يهربون من تحت أيدي داعش إلى جهة آمنة، ينتهزون الثغرات والفجوات للتسلسل عبر المنافذ المتاحة لهم والمتحررة بيد قوات الأمن العراقية، نساء وأطفال وشياب يحملون أمتعتهم باتجاه القوات المحررة، يتنفسون الصعداء بعد تخلصهم وتحررهم من براثن هؤلاء الغربان، حيث تنقلهم القوات المحررة إلى

المخيمات المنتشرة بالقرّب من الموصل والتي جهزت وأعدت قبل تحرير المدينة والهجوم عليها لاستقبال النازحين من الحرب، كان هناك العديد منهم، من خلال متابعتي للاخبار كنت أمعن النظر في الخارجين من المدينة لعلني أجد من بينهم زوجي سرمد، كانت وجوههم مكفهرة ومتعبة من جرّاء القصف والخوف قد أنهكهم. كنت أتمّنى أن أجد الصحفي دلشاد مرّة أخرى فهو الآن بالتأكيد يتواجد في الخطوط الأمامية من الحرب ويرى هؤلاء الناس الذين غادروا المدينة، كان بإمكانه أن يساعدني لإيجاده، إلا أنه الآن مشغول في تغطية الأخبار ولم يمر من هنا منذ زمن طويل ولم أعرف عنه أيّ خبر آخر، أعلم بأنه سوف يدخل إلى المدينة ويسجل أحداث المعركة ساعة بعد ساعة.

كان على أن أتخذ خطوة وأتحرك لأبحث عنه بنفسي من أن أبقى مكتوفة اليدين أنتظر أن يأتي إلينا، قلبي طفق يدق ويتلهف لرؤئيته، هاهو قد تحرر الجانب الأيسر من المدينة، لم يعد هناك من طائل على غيابه أكثر، يجب أن أقتفي أثره وأذهب بنفسي وأجد بيت تلك العجوز، غيّر أنه كان من المستحيل الذهاب إلى المدينة ما لم يتم تحرير الجانب الأيسر بالكامل وتسمح القوات المحررة من دخول الناس إليها.

اتصلت بعمي صباح الذي كان هو أيضاً في انتظار أن أنقل له خبراً عن عودة سرمد، أخبرته بأنني لم أزل أنتظر ولم يظهر إلى الآن وأريد مساعدته ليرافقني في تجوالي للبحث عنه في المُخيمات التي يتواجد فيها النازحين

الجدد الهاربيّن من الموصل بعد عملية التحرير، عسى ولعلنا نجده هناك. لبى طلبي وأخبرني بأنه سيأتي غداً إلى مخيمنا.

كما وعدني رأيت عمي واقفاً أمام باب الكابينة كنت أهم بفتح الباب فوجدته واقفاً يرفع يده ليطرقه، ابتسمت له فرحة.

تركت رافو عند نازدار تعتني به إلى حين عودتي، وتوجهنا أنا وعمي بالسيارة إلى المخيم الجديد الذي يقع على طريق الموصل وعلى مشارف المدينة. كان عمي قد استعاد عافيته من الأزمة التي أصابته في الفترة الأخيرة والحزن الذي جثم على صدره عندما ذهب إلى سنجار.

في الطريق كنت أرى السيارات تتدافع متوجهة خارجة من مدينة الموصل إلى المدن الأخرى بعيداً عن دخان الحرب. أرى أناساً بوجوه منهكة خائفة ومذعورة.

وصلنا إلى أقرب مخيم في طريقنا، طلبنا من السائق أن يبقى معنا يرافقنا إلى أن ينهي جولتنا بنتيجة، ولجنا إلى المخيم. وجدنا حشداً غفيراً من الناس قد التجأوا إليه، جلبتهم القوات الأمنية من المناطق الواقعة في جبهات القتال. وجوه مكفهرة ومرهقة وتائهة لا تعرف مصيرها، تذكّرت أيامنا الأولى من هروبنا من مسلحي داعش، كيف لي أن أجد سرمد بين آلاف الوجوه الغريبة المتشحة بالحزن والألم، كنت أتبع هاجسي أحاول أن أحس بوجوده لعله يكون هنا. فقد كان يصعب عليّ البحث بين هذا الحشد الغفير. أدرنا النظر في كلّ الوجوه وأخذنا نسير بينهم ونجول النظر بعيون

مفتوحة نبحث عن ضالتنا المفقودة، كنت متيقنة من أن سرمد ذا الوجه النظر والبشوش قد تغير الآن واستحال إلى شخص آخر بعد تلك الفترة، ولربما سيصعب علي معرفته بسهولة، إلا أن ذلك ليس مستحيلاً فإنني سوف أحس به ويرفرف له قلبي حالما أراه وسأتعرف عليه بسرعة وأن ذابت ملامحه وضعفت جسده ووهنت قواه.

كنت أدعو بأن يقع عينيّ على حبيبي، ها هو الآن قد تحررت الموصل وأن كان زوجي حياً فإنني يجب أن أجده هنا. أن لم يكن هنا فمن المستحيل أن يكون حياً.

لوهلة من الزمن رأيت شخصاً قوامه يشبه قوام سرمد، هرعت إليه من خلف والتفت إليه لأتأكد منه إلا أنه لم يكن هو. كأنه سراب في صحراء جافة أركض خلفه متوهمة بأنه هو، كأنني أبحث عن قطرة ماء لتعيد لي الحياة.

مرّرنا بشارع طويل في المخيم كان الشارع الرئيسي، شرع عمي صباح يتفقد الخيم عسى ولعله يجده منزوياً تحت أحد تلك الخيم وأخذَ ينادي باسم سرمد ويسأل أهل الخيم، خيّمة بعد خيّمة يسير ويستفسر أما أنا فقد بدأت أتمتم وأردد اسمه كثيراً وأناديه لعله يسمع صوتي.

درنا دورتين وثلاثة بين الفروع والخيام لم نجد له أثراً، ولم يعرف أحد ذلك الاسم. عدنا أدراجنا إلى الباب الرئيسي للمخيم ومكثنا جالسين هناك فوق مصطبة اسمنتية وبدأنا نُراقب القادمين الجدد في الحافلات والسيارت. كنا

ننتظر، يحدونا الأمل في أن نراه ونجده من بين هؤلاء الناس فإن كان حياً فهو لابد أن يترك تلك المدينة ويأتي إلى هنا، فالناس بدأت تخرج من المدينة أفواجاً، فلماذا يبقى هو هناك.

بعد بحثٍ طويل وغير مجدي بين الحاضرين، وجدنا أن من يأتي إلى ذلك المخيم يتم تسجيله في الإدراة من أجل احتساب القادمين ومعرفة الموجودين وعددهم، توجهنا إلى قسم الإدارة نستفسر، كان هناك طابور طويل من العوائل التي سبقتنا في البحث عن مفقوديهم في السجل الضخم. كان موظف الإدارة يحاول كلّ جهده من أجل أن يجد الأسماء التي تطرح له، أغلب الأسماء التي يبحث عنها لا يجدها متأسفاً، فيندب الأم أو الأب حظه على فقدان أحد أفراد عائلته. من بين عدد من الأسماء يبرز اسماً ويهتف الرجل بصوت عالٍ يملؤه الفرح كأنه قد وجد ضالته قائلاً (ها هو اسمه موجود هنا.. اذهب وابحث عنه إنه في هذا المخيم). يهلهل الأهل فرحاً ويكاد أن يقبّلوا الرجل من شدة السعادة وينطلقون سريعاً خارجاً يبحثون خيّمة خيّمة عن مفقودهم.

حان دورنا بعد مرور أكثر من ساعة، تقدمنا إلى الأمام ورددتُ اسم زوجي بتوجس (سرمد خيري سيدو)، أنزل الرجل عينه على السجل وبدأ يردّد اسمه بين لسانه بصوت خافت، كنت أجول بعيني وأبحث معه بين الأسماء، لربما يعبر من أمامه الاسم ويفلت منه ولا يلاحظه، كنت أحد النظر وأركز على أصبعه الذي يمر بين الأسماء ليقرأه بدقة ولا يمر عليه اسم دون

أن يذكره. عقب بحث طويل لم يعثر عليه وقال بأنه لا يتواجد هنا ولم يأتِ إلى هنا. انقبضَ قلبي وأحسست بالخذلان، رجوت منه أن يعيد قراءة الأسماء، شاهد الدموع وقد ملأت عينيّ فأعاد الرجل الكرّة وبحث عنه من جديد إلا أنه تأكد لنا بأنه لا أثر له هنا.

[٣٢]

خرجنا من هناك وقلبي قد انقبض غماً. من بعيد تناهى إلى مسماعيّ صوت خفيض، امتزج بأصوات صخب الآخرين، تعال الصوت مقترباً (ست كنار)، استغربت من يناديني في هذا المخيم، التفت إلى المصدر، وجدتُ رجلاً نحيفاً يعرج في المشي يتكئ على عكاز، توقف عمي يتفرس في القادم، توضح ملامحه، كان السيّد رافي، صديق سرمد في العمل، انشرح صدري برؤيته، رحب بنا قائلاً:

-ماذا تفعلون في مخيمنا؟

إذاً إنه يسكن هنا، استقبلنا بحرارة، جذبنا إلى خيمته يبغينا مقابلة عائلته، تابعناه وهو يسير مترنحاً، تساءل عن سبب وجودنا في هذا المخيم، أخبرته بصوتٍ مخنوق:

-كنا نبحث عن زوجي.. لقد قدم الكثير من النازحين إلى هنا بعد تحرير المدينة.

-نعم ولايزالون يتوافدون إلى مخيمنا منذ يومين.

-يبدو أن هناك الكثير من المسيحيين في هذا المكان؟

-نعم أكثر أهالي المحمودية والبرطلة يعيشون هنا.

وصلنا خيمتهم، وارب الباب وهو ينادي على زوجته بأن لديهم ضيوف، كانت زوجته بدينة وصغيرة يملأ وجهها الأحمر الكثير من البثور، رحبت

بنا ودعتنا للجلوس، كانت صورة للمسيح المصلوب يعتلي طرف من الخيمة وفي زاوية بعيدة أوقدوا شمعة، كان وضعهم ليس أيسر منا، لم يكن يملكون الكثير من الحاجات، ولديه الممزقتان الملابس والحافيان دخلا الخيمة يتفقدان الضيوف الجدد. ردّد رافي:

-تعالا رحبا بالضيوف.. (أشار إلى كليهما) هذا متي وهذا رافد. إنهما يرتادان المدرسة سوية.

يبدو بأنهما توءمين، متشابهين لوالدتيهما.

سأل رافي عن أنباء سرمد، أخبرته بأنني لم أزل أنتظر قدومه، إنه يختبئ في منزل رجل عجوز في الموصل ولكن لا أعلم ماذا حلّ به، كان من المفترض أن يخرج الآن من المدينة ويقبل مع اللاجئين إلى هذه المخيمات. لحظتها دخل إلى المخيم شاب في مقتبل العمر يبدو عليه الاكتئاب وهو شارد الذهن يحمل جهاز موبايل، دون أن ينبس بكلمة دخل وقعد أمامنا، عرّفه علينا رافي قائلاً:

-إنه ابن عمي رافائيل هرب مؤخراً من المدينة.. خرجوا بأعجوبة من هناك.

التفت إلى ابن عمه يوحي له بأن يتكلم ويسرد لنا ماجرى لهم في المدينة المنكوبة، بدأ الشاب بالنطق وهو يحملق في جهازه المحمول المليء بالصور عن المدينة، أرانا الصور وهو يتكلم:

-كنا في المدينة حينما دخل داعش وسيطرعليها، لم نعلم بأن الوضع سيسوء كثيراً، سمعنا في الجوامع يرددون وينادون علينا ويقولون (أمام

النصارى ثلاثة خيارات إما أن يسلموا أو يدفعوا الجزية مقابل بقائهم أو أن يغادروا المدينة) وأخبرونا أن يوم السبت الساعة الثانية عشر هي آخر موعد لنا في المدينة وعلينا مغادرتها. لم نصدق الأمر، نحن الذين كنا نعيش جنباً إلى جنب مع مختلف الأطياف في مدينتنا دون أية مشاكل أوعداء فيما بيننا، ولكن الأسف هؤلاء القوم خلقوا تلك الفتنة والتفرقة. بعد يوم شاهدنا الناس يجمعون أغراضهم ويهيمون بمغادرة الموصل إلا أن رجال داعش وضعوا سيطرات أمامهم، قبل أن ينفذوا من أيديهم بدأوا يسرقونهم وينهبون كل ما يحملونه معهم. لذلك لم نخرج من البيت مخافة أن يمسك بنا هؤلاء الغرباء ولكن الأمر لم يتوقف عند ذلك الحد، فقد توسع عمليات النهب لديهم ليقتحموا منازلنا ويأخذوا ما نمتلكه من مال وذهب حتى الأطفال لم يسلموا من أيديهم فقد سرقوا أقراط الفتيات الصغيرات، عندئذ عرف والدي مدى وحشيتهم لذلك قررَ أن نهاجر المدينة بأسرع وقت ممكن ونفر بجلدنا قبل أن يدبغوها. فلا مجال للعيش مع هؤلاء البشر، لم نبق في البيت بعد ذلك، غادرنا المنزل حالاً واتجهنا ناحية مدينة أربيل.

أنهى السيّد رافي كلامه قائلاً:

-منذ ذلك الحين وهم يسكنون في هذا المخيم بجوارنا.

سألته عن موقع منزلهم في الموصل لعله يكون قريباً من بيت العجوز الذي يسكن معها سرمد، قال هازاً رأسه:

-لم يعد لدينا منازل فقد حولها داعش كلها بأسمائهم في دائرة العقارات.. ونحن بعيدين من ذلك الحي.

كان عليّ أن أبحث عن شخص ما يسكن ذلك الحي، تمتم رافي يحاول مساعدتي:

-أنا باقٍ هنا وسأتابع القادمين عسى ولعله نَجد سرمد، عند ذلك سأخبرك حالاً.. وسأستفسر من الأصدقاء الذين يسكنون الموصل إن كانوا يعيشون في ذلك الحي وأطلب منهم أن يبحثوا عنه.

كان المساء قد هبط، طلب مني عمي أن نعود إلى مخيمنا طالما تأكدنا من إن لا وجود لزوجي هنا، ودّعنا السيّد رافي وعائلته على أمل اللقاء وغادرنا المخيم.

بعد يومين اتصل بي جاسم عادل وصوته يملؤه الحزن ليعلمني برحلته الأخيرة إلى الموصل عقب عودته من بريطانيا وتوجهه مباشرة إلى بيت والدته:

-لقد عدت إلى الموصل بعد تحريرها وذهبت مباشرةً إلى منزلنا، طرقت الباب كثيراً كان الباب مقفولاً، طرقت مراراً لم يستجب أحد، يبدو أن المنزل كان خالياً من أيّ أحد، حاولت أن أفتح الباب ولكني لم أستطع فكها، لم ألبث واقفاً، حطمت الباب ودخلت منزلنا الذي امتلأ بالتراب، كان المكان مهجوراً من ساكنيه كأنهم قد تركوه منذ زمن طويل، لم يكن هناك من أحد لا والدتي ولا سرمد، امتلكني الرعب، سألت الجيران عن والدتي،

لم يكن في الرواق سوى منزلين بقوا في مكانهم، قالوا بأنهم لم يشاهدوها منذ فترة طويلة جدّاً ولا يعرفون عنها شيئاً، دخلت الغرف، كان البيت مقلوباً رأساً على عقب، كأن صراع ما أو حادث ما قد وقع في المنزل، فيما بعد وجدت أن هناك تل من التراب قد تكومت في جانب من الحديقة تحت شجرة الصفصاف، كنت مبهورة من وجود تلك الكتلة لأن شكلها توحي بأنها قبر كأن أحداً ما مدفون في داخلها، لا أطيل عليك الكلام لقد كان قبر والدتي، لقد توفيت والدتي وعلى ما يبدو أن سرمد لم يتمكن من يدفنها خارج المنزل خوفاً من أن يكشف نفسه لذلك قام بدفنها في الحديقة. حملت مثواها وأخذتها ودفنتها في مقبرتنا. للأسف لم أتمكن من رؤية والدتي مرة أخرى. إن الحظ لم يحالفني، إنني ألوم نفسي كثيراً لأنني تركتها لوحدها تموت دون أن أكون بجانبها وأعتني بها، رغم أنني متأكد من أن سرمد لم يقصر في العناية بها إلى آخر لحظة من حياتها. بالنسبة إلى زوجك سرمد فإنني أستغرب من أنني لم أره في المنزل، لعله غادر المنزل قبل عودتي، ما لا أعرفه هل أن سرمد قد خرّج من المنزل قبل أن يتم تحرير الموصل وذهب إلى وجهة أخرى أو أنه قد تم القبض عليه من قبل داعش، لا أحد من الجيران يعلمون شيئاً عن وجود رجل آخر في هذا المنزل، إلا أنهم رأوا بأن داعش قد دخلوا البيت مراراً في الآونة الأخيرة، آسف لا أعرف كيف أنقل لك خبر سرمد فأنا لم أستطع أن أعرف عنه شيئاً وإلى أين ذهب، أرجو أن يعود إليك سالماً لأتمكن من أن أرد له ذلك الجميل).

تنهدت بقوة وأنا لا أعلم كيف أرد عليه وتأسفت لوفاة والدته وأنا أحدق في الطريق المؤدي أمامي إلى ما لانهاية.

تمت بحمد الله

عين على الطريق

روايــة

هونر كريم

الطبعة الأولى
1442 هـ 2020 م
دار ديوان العرب للنشر والتوزيع
مصر – بورسعيد
جوال: 00201211132879

E-mail: mohamedhamdy217217@gmail.com